

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الشهيد حمـه لخـضر الـوادـي

كلية العلوم الإسلامية



محاضرات في مقياس علوم القرآن

موجهة لطلبة السنة الأولى لليسانس علوم إسلامية

-السداسي الأول-

إعداد الأستاذ:

د. حسام الدين مخلوف

السنة الجامعية: 2025/2026م

المقرر:

- 1) المدخل لعلوم القرآن الكريم.
- 2) تنزلات القرآن وتنجيمه
- 3) جمع القرآن وتدوينه
- 4) علم المكي والمدني
- 5) علم أسباب النزول القرآني
- 6) علم القراءات القرآنية
- 7) علم التفسير
- 8) علم إعجاز القرآن
- 9) علم النسخ في القرآن الكريم
- 10) علم المحكم والمتشابه
- 11) علم الوجوه والنظائر
- 12) علم متشابه القرآن
- 13) علم إعراب القرآن
- 14) علم غريب القرآن
- 15) علم معاني القرآن

أهم المراجع:

- 01 . البرهان في علوم القرآن، للزركشي.
- 02 . الإتقان في علوم القرآن، للسيوطى.
- 03 . مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني .
- 04 . مباحث في علوم القرآن، ملئع القبطان.
- 05 . مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح.
- 06 . علوم القرآن، لعدنان زرزور .
- 07 . الوجيز في علوم القرآن، لمنصور كافي.
- 08 . البيان في علوم القرآن للشيخ عبد الوهاب غزلان.
- 09 - التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان لطاهر الجزائري.
- 10 - المحرر في علوم القرآن، لمساعد الطيار.
- 11 _ التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني .
- 12 _ المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة.
- 13 _ مدخل إلى القرآن الكريم محمد عبد الله دراز.
- 14 _ زينة الإتقان في علوم القرآن للسيد محمد علوى المالكى.
- 15 _ البيان في علوم القرآن لسليمان بن صالح القرعاوى ومحمد علي الحسن.

المحاضرة الأولى: المدخل لعلوم القرآن الكريم

1_تعريف "علوم القرآن":

علوم القرآن مركب إضافي، مكون من كلمتين: "علوم" و"قرآن".

1_1_تعريف "علوم":

لغة: معرفة الأشياء على الحقيقة التي هي عليها ظناً أو يقيناً، فهي جمعٌ، مفردُها عِلْمٌ، والعلم أشهر من أن يعرف.

لكن إن أردنا تعريفه بالمقابل: فهو نقىض الجهل.

وإن أردنا أن نعرفه باعتبار معناه: فهو إدراك الشيء بحقيقةه.

وإن أردنا أن نعرفه بالمرادف: فهو المعرفة والفهم للشيء على ما هو عليه.

اصطلاحاً: يطلق على المسائل المضبوطة ضبطاً خاصاً.

1_2_تعريف "القرآن":

القرآن أشهر من أن يُعرف أيضاً.

لغة: قد اختلفت فيه أقوال العلماء من حيث الناحية اللغوية هل هو مصدر أم وصف؟ ثم هل هو مهموز أم غير مهموز؟ والذي نرجحه أنه مصدر مهموز على وزن فُعلان بالضم كالغفران، والشكران، من قرأ يقرأ قراءةً، وقرأناً، ويشهد لهذا الترجيح ورود القرآن بمعنى القراءة "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَفُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبَعْ قُرْآنَهُ" [القيامة: 17-18]، أي: قراءته. فـ "قرأ": تأتي بمعنى الجمع والضم والتلاوة، والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وقد نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسمًا للكلام المعجز، المنزلي على محمد ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

اصطلاحاً: يذكر العلماء تعريفاً مشهوراً له فيقولون: "هو كلام الله، المنزلي على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز في لفظه ومعناه، المنقول إلينا بالتواتر، المتبع بدلالته".

شرح التعريف:

(كلام الله): كلام اسم جنس يشمل جميع الكلام لله تعالى ولملائكته، وبإضافته إلى لفظ الجلالة (كلام الله) يخرج كلام غيره من الإنس والجن والملائكة.

(المنزل): أي مالم يكن من كلامه لأهل السماء ويدخل فيه كلامه المنزل على عموم أنبيائه، ويخرج كلام الله الذي استأثر به سبحانه: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مداداً).

(على نبيه محمد): تقييد للمنزل كي يخرج ما أنزل على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

(المتعبد بتلاوته): يُخرج قراءات الآحاد، والأحاديث القدسية؛ لأن التعبد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليس قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك، كما خرج به سائر الحديث النبوى والقدسى لأنه لا يتبعيد بتلاوتهما. فهو المتفرد في الصلاة والتي لا تصح الصلاة إلا به وأن الثواب على تلاوته لا يعادله ثواب.

(المنقول بالتواتر): أي ما رواه جمٌع بحث تحال العادة اتفاقهم على الكذب، قيد خرج به الحديث القدسى والنبوى مما لم يرد متواتراً، وخرج به قراءات الآحاد والشواذ.

(المعجز بلفظه ومعناه): قيدٌ في التعريف؛ لأن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة والرسالة المتتجدة الصالحة لكل زمان ومكان، وقد وقع به التحدي إلى يوم القيمة، قال تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُونَ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْصِي ظَهِيرًا).

1_3_تعريف المركب الإضافي "علوم القرآن":

لهذا المصطلح معنيان:

أ- معنى عام.

ب- معنى خاص باعتباره (فناً مدوناً)، وإليك الحديث عن كل نوع:

أ- علوم القرآن في المعنى العام:

هي: "أنواع المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن الكريم، سواء كانت خادمة له، أو دل القرآن على مسائلها وأحكامها".

علوم خادمة للقرآن كعلم التجويد، وعلم التفسير، وعلوم اللغة العربية، وعلم الناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك، وعلوم دل القرآن على مسائلها وأحكامها، كعلم الفقه، وعلم التوحيد، وعلم الفرائض، وعلم التاريخ، ونحو ذلك.

وقد توسع بعض العلماء في ذلك حتى أدخلوا علم الطب، وعلم الفلك، والجبر، والهندسة، وغيرها. ولكن ليس هنالك شك أن كل العلوم الدينية والعربية داخلة في معنى علوم القرآن في معناه العام.

ب- علوم القرآن باعتباره علمًاً مدوناً:

علوم القرآن باعتباره فناً مدوناً عبارة عن مباحث أساسية ينبغي الإمام بها لكل مقبل على فهم دراسة القرآن الكريم، لذا يمكن تعريفه بأنه: "أنواع المعرف والعلوم الخادمة للقرآن الكريم كعلم النزول، وعلم الرسم، وعلم التجويد والقراءات، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم التفسير ونحو ذلك". فهو: "العلم الذي يهتم بدراسة المسائل والمعلومات المتعلقة بالقرآن الكريم من حيث نزوله وجمعه وقراءته وتدوينه، ومكيه ومدنيه، والناسخ والمنسوخ والحكم والتشابه، والإعجاز وغيرها من العلوم المتعلقة فيه". وبعبارة أخرى هو: "مجموعة المعرف والعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم من ناحية لفظه ومعناه وشكله الظاهري".

- فيدخل في اللفظ: العلوم المتعلقة بالتجويد والقراءات، الوقف والابداء...
- ويدخل في معناه: علم التفسير، وأسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، المطلق والمقييد، الحكم والتشابه، المبهمات، الإعجاز، المكي والمدني، توجيه القراءات، الوجوه والنظائر، مشكل القرآن.
- ويدخل في شكله الظاهري: علم الرسم وعلم الضبط وعلم عند الآية وعلم التحذيب.

ويمكن أن نجعل اعتبارات علوم القرآن كالتالي:

- تاريخ التنزيل: أسباب النزول، المكي والمدني، الناسخ والمنسوخ، الرسم والضبط..
- الاحتجاج والتدليل: الإعجاز، الدفاع عن القرآن، القراءات وتوجيهها...
- التفسير والتأويل: الوجوه والنظائر، المبهمات، مشكل القرآن، الترجمة...
- التعليل والتحليل: الحكم والتشابه، الدراسات اللغوية بمختلف مستوياتها...

2_ أسماء القرآن وأوصافه

1_ من أسماء القرآن:

للقرآن الكريم أسماء كثيرة منها:

- 1- "القرآن": قال تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) [الواقعة: 77]. وسمي بذلك لأنه يقرأ.
- 2- "الكتاب": قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رِبْ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة: 2] وسمي بذلك لأنه يقرأ ويحفظ في الصدور وأيضاً يكتب.

تنبيه: جاء لفظ الكتاب في القرآن الكريم ويراد به غير القرآن فمن ذلك:

- أ/ جاءت بمعنى التوراة في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ).
 - ب/ جاءت بمعنى الكتابة في قوله تعالى عن عيسى: (وَيَعْلَمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ).
 - ج/ وجاءت كلمة الكتاب والمراد بها اللوح المحفوظ في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) قوله تعالى: (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ).
 - د/ وجاءت بمعنى أي كتاب في قوله تعالى: (يَوْمَ نَطُوِي السَّمَاءَ كَطَّيِ السَّجْلِ لِلْكُتُبِ).
 - هـ/ وجاءت بمعنى كتاب الأعمال في قوله تعالى: (ا قْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).
- ومن أسماء القرآن أيضاً:

1. 3- "الفرقان": قال تعالى: الفرقان (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)

[الفرقان: 1]، وسمي بذلك لأن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل، أو لأنه نزل مفرقا.

- 4- "الذكر": قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الدِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). [الحجر: 9]
- 5- "التنزيل": قال تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

2_ من أوصاف القرآن:

وصف الله القرآن بأوصاف كثيرة كذلك منها:

- "النور": (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورُ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [التغابن: 8]
- "هدى" و"رحمة": (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُحْسِنِينَ) [لقمان: 3-2]
- "شفاء" و"موعظة": (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُم مَّوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [يونس: 57].
- "مبارك": (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعْلَكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأنعام: 155].

- "مبين" (قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين) [المائدة:15].
- "الحكيم" (تلك آيات الكتاب الحكيم) [يونس:1].
- "بشرى" (مصدقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين) [البقرة:97].
- "عزيز" (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز) [فصلت:41].
- "مجيد" (بل هو قرآنٌ مجيد) [البروج:21].
- " بشير" و "نذير" (كتابٌ فصلت آياته قرآنًا عربياً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِّيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) [فصلت:4].

ملاحظات:

- مصدر أسماء القرآن الكريم وصفاته توقيفي، فلا نسميه ولا نصفه إلا بما جاء في القرآن أو في السنة النبوية الصحيحة.
- الصحيح أن لفظ "المصحف" ليس اسم القرآن ذاته، وإنما هي اسم للصحف التي كتب عليها القرآن، ولم يطلق عليه اسم المصحف إلا بعد جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وذلك في صحف ضم بعضها إلى بعض فسميت مصحفاً، ثم صار اسم الكتاب بعد ذلك.
- المصحف هو مجموع الصحف والأوراق التي كتب عليها القرآن الكريم، والفرق بينه وبين القرآن يتجلّى في هذه الفروق:
 - أن القرآن كلام الله المسموع ولا يسمى كلام الله مصحفاً حتى يكتب.
 - المصحف هو الكتاب الورقي أو الجلدي أو الإلكتروني الذي كتب فيه كلام الله تعالى، وهو سنة راشدة.
 - وجود الفواصل التحzierية والأشكال الجديدة والحركات والنقط والملود المتعلقة بالخط العربي وتطوره، ليست من القرآن وهي داخلة في المصحف -علم الضبط-.
 - المصحف يحرم على الكافر مسه، بخلاف سماع القرآن.

- 5- حرمة مس المصحف على المحدث حدثاً أصغر -على الراجح- دون القراءة.
- 6- المصحف يجمع على مصاحف، والقرآن لا يجمع؛ لأنَّه واحد لا تعدد فيه.
- 7- لا يقال (بيع القرآن)، وإنما (بيع المصحف) لأنَّ القرآن لا يتصور بيعه.
- 8- من ملك مصحفاً فإنه يقول (هذا مصحي) بينما لا يقول (هذا قرآني، قرآن ابن مسعود)؛ لأنَّ القرآن هو كلام الله تعالى.
- 9- القرآن الكريم لا يمكن لأي كائن أن يدنسه أو يحرقه فهو محفوظ بحفظ الله له، وأما المصحف الشريف فقد تتعرض نسخة منه للاعتداء من قبل من ختم الله على قلوبهم وأعمى أفواهم.

2-3 معنى الآية:

لغة: لها ثلاثة معانٍ:

- الأول: جماعة الحروف، تقول العرب خرج القوم بأبيتهم أي بجماعتهم.
- الثاني: العجب تقول العرب: فلان آية في العلم وفي الجمال، فكأنَّ كل آية عجب في نظمها، ومعاني المودعة فيها.
- الثالث: العالمة، تقول العرب: خربت فلان وما بقي فيها آية، أي عالمة؛ فكأنَّ كل آية في القرآن عالمة.
- اصطلاحاً:** قرآن مركب من جمل، ولو تقديرًا ذو مبدأ ومقطع، مندرج في سورة، وأصلها العالمة.
- وقيل:** هي الواحدة من المعدودات في السور، سميت به لأنَّها عالمة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها.

2-4 معنى السورة:

لغة:

- من العلماء من يرى أنَّ السورة تهمز من السور، ومنهم من يرى أنها لا تهمز من السور.
- فمن همزاها جعلها من أسأرت، أي: أفضلت من السور، وهو ما بقي من الشراب في الإناء؛ لأنَّها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزاها جعلها من المعنى المتقدم أيضاً وسهَّل همزتها.

ومن لم يهمرها: شبهها بسور البناء، أي: القطعة منه. وقيل من سور المدينة؛ لإحاطتها بآياتها، واجتماعها كاجتمع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد.

ويحتمل أن تكون السورة بمعنى الرتبة؛ لأن الآيات مرتبة في كل سورة ترتيباً متناسباً. وقيل: إنما سميت سورة لارتفاع قدرها، لأنها كلام الله تعالى، وفيها معرفة الحلال والحرام، ومنه رجل سوار، أي: يعلو بفعله ويرتفع.

اصطلاحاً:

مجموعة آيات ذات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

تقسيم القرآن:

أرباع القرآن على حسب السور: ينقسم القرآن على حسب السور إلى:

1 - السبع الطوال: من البقرة إلى التوبية.

2 - المئين: ما بعد السبع الطوال.

3 - المثاني: وهي التي تقل آياتها عن المئة وتشتت فيها الأنبياء والقصص.

4 - المفصل: لكثرة الفواصل بين الآيات: وهي من قاف إلى الناس .

أرباع القرآن:

على حسب الأجزاء والأحزاب:

- الربع الأول: من الفاتحة إلى الأنعام.

- الربع الثاني: من الأعراف إلى الإسراء.

- الربع الثالث: من الكهف إلى فاطر.

- الربع الرابع: من يس إلى الناس.

أثلاث القرآن:

-الثلث الأول: إلى "والسابقون الأولون..." التوبية.

-الثلث الثاني: إلى "فمالنا من شافعين" الشعراة.

-الثلث الثالث: إلى سورة الناس.

أنصاف القرآن:

- نصفه بالحروف: حرف النون من قوله "نَكْرًا" في سورة الكهف.
- نصفه بالكلمات الدال: من قوله "الْجَلُود" في سورة الحج.
- نصفه بالأيات: "يَأْفَكُون" من سورة الشعراء.
- نصفه على عدد السور: الحديد.

عدد السور والآيات:

- عدد سور القرآن: 114 سورة.
- عدد كلماته: 77437 كلمة.
- عدد حروفه: 323015 حرفا.
- عدد آيات القرآن: 6204، 6214، 6219، 6225، 6236.

أسئلة:

سؤال 1: ما الحكمة في تقطيع القرآن سورا؟

الجواب:

- حتى تكون كل سورة بل كل آية فنا مستقلا وقرآننا معتبرا.
- كل سورة بمفردها معجزة، وآية من آيات الله تعالى، وجاءت السور طوالا وقصارا وأوساطا تبيّنها على أن الطول ليس من شرط الإعجاز.
- الحكمة بالغة في التربية والتعليم، وتدریج الأطفال من سور القصار إلى ما فوقها، تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه.

-تيسير التلاوة: فالمطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل.

- لكل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصتها، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكامن أسرارهم وغير ذلك.

سؤال 2: هل كانت الكتب السماوية السالفة كذلك؟

أغلب الظن لا وذلك لوجهين: أحدهما أنها لم تكن معجزات من ناحية النظم والترتيب والآخر أنها لم تيسر للحفظ.

سؤال 3: ما فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سورة؟

لتفصيل القرآن وتقطيعه سورة فوائد كثيرة، منها:

أن الكتاب إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا.

أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب ثم أخذ في آخره كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله.

3_ فضل هذا العلم وثرته:

علوم القرآن من أفضل العلوم وأشرفها وأسمتها؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم كما هو معلوم، ومن ثماره العظيمة:

1- تيسير تفسير القرآن الكريم وفهمه.

2- معرفة الجهد العظيم الذي بذلها السلف لدراسة القرآن الكريم وعنایتهم به وبعلومنه.

3- التزود بالقواعد والأصول التي تمكّن المسلم من الدفاع عن هذا الكتاب.

4- الثقافة العامة حول القرآن الكريم.

4_ تاريخ علوم القرآن:

كانت المباحث التي تعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وإعجازه، وجمعه وترتيبه، وناسخه ومسسوخه، وقراءاته ونحو ذلك من الموضوعات المعروفة عند الصحابة وإن لم تكن مدونة مكتوبة، وإنما مسلكهم في تحصيلها الفهم السديد، أو تذوق بيان القرآن وإعجازه، كل هذا كان سليقة وذكاء في القرىحة وبتوجيهه و بإرشاد من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبقيت العلوم تؤخذ بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين، حتى كانت بداية التدوين لبعض علوم القرآن:

قام سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ليدونوا لنا الروايات التفسيرية المروية عن الصحابة وكبار التابعين، وبذلك كانت أول حركة لتدوين علوم التفسير.

وكتب علي بن المديني شيخ الإمام البخاري كتابا في أسباب نزول القرآن، وأبو عبيد القاسم بن سلام كتب في الناسخ والمنسوخ، ودون الفراء كتابه في معاني القرآن، وذكر محمد بن جرير الطبرى في مقدمة تفسيره أبحاثا في علوم القرآن كبحث الأحرف السبعة.

وأما ما يطلق عليه علوم القرآن، فلم يتناول أحد تدوينه ككل بل شرحوا أبعاضه وأجزاءه، ففي القرن الرابع الهجري ألف أبو بكر السجستاني في غريب القرآن - وهو جزء من علوم القرآن -، وأول ظهور لهذا المصطلح كان في القرن الرابع على يد محمد بن خلف بن المربان الذي ألف كتابه: «الحاوى في علوم القرآن» ، أو في القرن الخامس على يد علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي، الذي ألف كتابه: «البرهان في علوم القرآن». ثم انهالت التأليف في كل فن من الفنون، فكتب السهيلي في مبهمات القرآن، وكتب أبو عمرو الداني في القراءات والرسم والضبط، وكتبوا في أسباب النزول، والإعجاز، والأمثال، والقرآن وحججه وجده.

وكتاب الحوفي «البرهان في علوم القرآن» غير كتاب الزركشي _ والموجود منه حاليا خمسة عشر جزءا_، ويبدو من طريقة أنه كتاب تفسير، وإن تعرض من خلال تفسيره إلى شذرات في علوم القرآن، التي يظن أنه قد تعرض لها بإسهاب في المقدمة المفقودة من تفسيره مع الأجزاء الخمسة عشر الأولى، ولم يبق بأيدينا إلا النصف الآخر من الكتاب.

ثم جاء بدر الدين الزركشي وألف كتابه: «البرهان في علوم القرآن» وهو من خير كتب علوم القرآن، وكتابه يقع في أربعة مجلدات.

وتلاه السيوطي بتأليف كتابه: «التحبير في علوم التفسير». وكتابه «الإتقان في علوم القرآن» الذي يعتبر عمدة في هذا العلم.

وهذان الكتابان من أفضل الكتب وأوسعاها في علوم القرآن.

وأشهر الكتب كذلك: «مناهل العرفان في علوم القرآن» للشيخ الزرقاني وهو أوسع هذه الكتب. ولا يزال يكتب في هذا المجال إلى عصرنا الحالي، فهناك العديد من الكتب والمنظومات والرسائل العلمية.

واجب منزلي:

- 1_ تلخيص المحاضرة الأولى في شكل خرائط ذهنية.
- 2_ جمع وكتابة أكبر قدر ممكن من عناوين الكتب التي ألفت في علوم القرآن مع ذكر مؤلفيها.

الحاضرة الثانية: تزلات القرآن وتنجيمه:

١_ الوحي:

اختار الله تعالى من عباده نفوساً لها من نقاء الجوهر وسلامة الفطرة ما يعدها للوحي السماوي، ليلقى إليها رسالته التي تسد حاجة البشر في رقي وجوداته، وسمو أخلاقه، واستقامة نظامه، وهؤلاء هم رسليه وأنبياؤه. ولا غرابة -عندنا اليوم- في أن يكون هذا الاتصال بالوحي السماوي. ونحن نرى الناس تتخطاب في الهاتف وتعامل من خلاله، وقد يكون أحدهما في أقصى المشرق، والآخر في أقصى المغرب، وقد لا يسمع الجالس بجانبها شيئاً سوى أزيز كدوبي النحل الذي في صفة الوحي.

وقد شاهد الوحي معاصروه ونقل إلينا بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعي إلى الأجيال اللاحقة.

١_١_ تعريف الوحي:

لغة:

يقال: وَحْيٌ إِلَيْهِ وَلَهُ، "يَحْيِي" وَحْيًا أَشَارَ وَأَوْمَأَ إِلَيْهِ، وَأَوْحَيْتُ إِلَيْهِ إِذَا كَلَمْتَهُ بِمَا تَخْفِيهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَكُلُّ مَا تلقىَهُ إِلَى غَيْرِكَ خَفْيَةٌ فَهُوَ مِنَ الْوَحْيِ.

فالوحي في اللغة يعني: الإعلام في خفاء بأي صورة كانت.

ف فهو: "الإعلام السريع الخفي، إما في اليقظة وإما في المنام".

والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

1. الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أم موسى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهَا أُمُّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ).
2. الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيْنَاهُ أَنَّ الْخَنِيدَ مِنَ الْجِبَالِ يُبُونَ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ).
3. الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاها القرآن عنه: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمُحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَيَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا).
4. وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الإنسان: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوَحِّدُونَ إِلَيْهِ أَوْلِيَاءِنَّهُمْ لِيُجَادِلُوكُمْ).

5. ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَّعُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ).

اصطلاحاً:

عُرِفَ الوحي في اصطلاح الشعوب بتعريفات أخص من التعريف اللغوي؛ ومن أشهرها وأجمعها: "كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه". وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

1_2_كيفية وحي الله إلى الملائكة:

جاء في القرآن الكريم ما ينصّ على كلام الله ملائكته: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا).

وعلى إيحائهم: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَّعُوا الَّذِينَ آمَنُوا).

وعلى قيامهم بتدبير شئون الكون حسب أمره: (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا) (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا). وهذه النصوص متآزرة تدل على أنّ الله يكلم الملائكة دون واسطة بكلام يفهمونه.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِي بِالْأَمْرِ تَكَلَّمُ بِالْوَحْيِ، أَخْذَتِ السَّمَاءُ رِجْفَةً -أَوْ قَالَ: رعدة- شَدِيدَةً خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَعَقُوا وَخَرُّوا سَجَدًا فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جَبَرِيلُ، فَيَكْلِمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمْرُ جَبَرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كَلِمًا مَرَّ بِسَمَاءِ سَأَلَهُ مَلَائِكَتَهَا: مَاذَا قَالَ رَبِّنَا يَا جَبَرِيل؟ فَيَقُولُ: "قَالَ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ"، فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مُثْلُ مَا قَالَ جَبَرِيلُ فَيَتَّهَمُ جَبَرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حِيثُ أَمْرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

فهذا الحديث يبين كيفية الوحي: تكلم من الله، وسماع من الملائكة، وهو شديد لأنثره.

1_3_الأدلة العقلية على إثبات الوحي للنبي ﷺ:

إنّ ثبوت الوحي في تاريخ الأنبياء من الأمور المسلم بها بين أهل الديانات الربانية السابقة، فلم يكن النبي ﷺ أول بشر أوحى الله إليه، أو أدعى ظاهرة لم تكن معروفة في الأنبياء السابقين له.

وقد قال ورقة بن نوفل . الذي كان قد تنصر في الجاهلية . للنبي ﷺ عندما ذهبت به زوجه خديجة -رضي الله عنها- إليه فقال: "هَذَا النَّاْمُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، وَإِنْ أَدْرَكَنِي يَوْمُكَ أَنْصُوكَ نَصْرًا مُّؤَرِّرًا" ، والنَّاْمُوسُ: صَاحِبُ السِّرِّ الَّذِي يُطْلِعُهُ بِمَا يَسْتُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ.

فهي ظاهرة ليست بدعة في التاريخ، وقد تضافرت الأدلة العقلية والنقلية في الكتاب والسنة بما يؤكد ثبوت الوحي من الله تعالى لنبيه الكريم محمد ﷺ ، وهذه الأدلة هي من مؤكّدات النبوة.

2_ حالات النبي ﷺ مع الوحي:

2_1 _ عند نزول الوحي عليه: ما كان يظهر على النبي ﷺ من ثقل جسمه، وتفصده عرقاً في الليلة الشاتية، ويسمع عند جبينه دوي كدوبي النحل ونحوها مما هو خارج عن مقدور إنسان أن يتصنّعه، ونقل الصحابة ذلك نقاًلاً متواتراً بما يفيد اليقين ويؤكد صدقه.

2_2 _ عند انقطاع الوحي عنه في وقت هو أحوج ما يكون إليه: وقد كان الوحي ينقطع عنه في وقت هو في حاجة إليه، ولا ينزل طوع إرادته مما يؤكد صدق النبي ﷺ ، وذلك عندما كان يُسأل عن بعض الأمور ولم يكن له في ذلك علم من الله تعالى، فينتظر حتى ينزل عليه الوحي كي يجيب السائل.

2_3 _ عندما ينزل الوحي مصوّباً أو معاوباً له: وما يؤكد صدقه ﷺ ما جاء في القرآن الكريم من عتاب وتصويب لبعض مواقفه.

2_4 _ شمائل النبي ﷺ تدل على صدقه: فقد قامت الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ من مهدّه إلى بعثته فلم يعرف عنه كذب في حياته قط، وقد شهد بذلك أعداؤه قبل أتباعه وأصحابه. فعندما سأّل هرقل أبا سفيان في قوله: "فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَهْمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ: لَا، فَقَالَ هرقل: فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدْعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ".

2_5 _ نصرة الله تعالى له: وما يؤكد صدقه نصرة الله له، وإهلاك أعدائه، وتولي أمره وأمر من آمن معه؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا ينصر الكاذبين.

2_6 _ ما أيدَه الله به من معجزات: فقد أيدَه الله بمعجزات كثيرة تدل على صدقه، وعلى رأس تلك المعجزات القرآن الكريم؛ الذي تحدى الله به الخلق، وخاصة من يشكُّ في صدق النبي ﷺ فليأتوا بمثله، أو عشر سور من مثله، أو حتى سورة من مثله.

2_7 علوم القرآن الواسعة المتنوعة: ما جاء في القرآن من علوم و المعارف متنوعة حوت كل مباحث الإيمان، وشملت كل فضائل الأخلاق والأعمال، وتشريعات أشرقت لها جوانب الحياة المختلفة المالية، والجتنائية، والعسكرية، والسياسية، والاجتماعية، ونحوها، وعلوم كونية شملت السماء وزينتها، والأرض وما عليها من جبال، وبحار، وأنهار، ورياح، ونبات، وحيوان وغيرها، وعلوم نفسية وتربوية غائرة في أعماق النفس بشكل تختار فيه العقول في زمان العلم -فضلاً عن غيره من الأزمنة-، ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها من تلقاء نفسه، في سعتها، ودقتها وعمقها.

2_8 القيم التي دعا إليها النبي ﷺ تؤكد صدقه؛ لأنَّه دعا إلى ما دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، من عبادة الله وحده دون سواه وترك عبودية غيره، ودعا إلى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، فهو لم يأت إلا بما بعث الله عليه المرسلين، ولهذا عندما سأله هرقل أبا سفيان وقال له: "فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ قَالَ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالْوَقَاءِ بِالْعَهْدِ وَادَّاءِ الْأَمَانَةِ". فَقَالَ لَهُ: هَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ وَلَكِنْ لَمْ أَظُنْ أَنَّهُ مِنْكُمْ وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُؤْشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيِّ هَانِئٍ".

2_9 الأمور الغيبية في القرآن الكريم: ما جاء في القرآن الكريم من أنباء الغيب التي أوحى الله إليه بها والتي لا يمكنه معرفة حقائقها إلا عن طريق الوحي؛ خاصة تلك الأخبار التي هي لأمم اندثرت آثارهم من الأرض.

3_ أقسام الوحي:

3_1_ الوحي من حيث العموم:

ينقسم الوحي من حيث العموم إلى قسمين:

3_1_1_3 وحي باللفظ والمعنى: وهذا هو القرآن الكريم، وقد أُمِرْنَا بالتعدد بتلاوته، والتدبر في معانيه، واتباع وحيه، والدعوة لهديه.

3_1_2_3 وحي بالمعنى دون اللفظ: وهذه هي سنة النبي ﷺ ، وقد أمرنا بأخذها والعمل بها، فالأخذ بالسنة أخذ بالقرآن الكريم.

3_2_ الوحي من حيث النزول:

ينقسم وحي الله تعالى لرسوله الكريم محمد بن عبد الله عليهما السلام وغيره من الرسل من حيث طرق نزوله إلى قسمين، وهما:

أ. وحي بدون واسطة: وهو على ثلاثة أنواع:

1. الرؤيا في المنام.

2. النفت في الروع.

3. كلام الله لنبيه من وراء حجاب.

ب . وحي بواسطة رسول من الملائكة: يرسل الله تعالى الملك بالوحى ليبلغ رسالته لرسله، كما في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينٍ) [الشعراء: 192-195].

وكلتا الحالتين مذكورة فيما يروى عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأله رسول الله عليهما السلام فقال: "يا رسول الله.... كيف يأتيك الوحي؟" فقال رسول الله عليهما السلام: "أحياناً يأتياني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّه علىّ، فيفصّم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّماني فأعطي ما يقول".

وفيما يلي تفصيل كلّ قسم:

3_2_1 _ وحي بدون واسطة:

وهو على ثلاثة أنواع:

أ. الرؤيا الصادقة في النوم:

رؤيا الأنبياء وحيٌ من الله تعالى، وقد كان أول ما بدئ به النبي عليهما السلام من الوحي الرؤيا الصالحة، كما جاء في حديث عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أَنَّهَا قَالَتْ: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحةِ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَاقِ الصُّبْحِ".

وقد ثبتت الرؤيا لنبي الله إبراهيم -عليه السلام- عندما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ب . النفت في الروع:

وهو أن يلقي الله تعالى الوحي في قلب ونفس الرسول ﷺ على وجه لا يستطيع دفعه ولا يجد فيه شِكّاً، ولا يتصور معه المخالفة، ولا التردد، بل يوقن أنه من عند الله تعالى، وليس من خطرات النفس، ولا نزغات الشيطان، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إِنَّ رُوحَ الْقَدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتْ حَتَّى تَسْتَكِنْ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا، أَلَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلِمُوا فِي الْطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلُنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوا بِعَصْبَيْهِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ".

جـ . كلام الله لنبيه من وراء حجاب:

وهو أن يكلم الله تعالى نبيه كلاماً حقيقياً يليق بجلاله دون تشيه ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا إلحاد، يسمعه منه نبيه ﷺ ويعيه.

3_2 _ وحي بواسطة رسول من الملائكة:

ما يكون بواسطة رسول من الملائكة يرسله الله تعالى كجبريل أو غيره من الملائكة فيوحي إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما كلفه الله بتبليغه وإنزاله، وقد اختص جبريل عليه السلام بإنزال الوحي على النبي ﷺ كما في آية الشعراة السابقة. ولا تخلو الحالات التي أتى فيها جبريل عليه السلام بالوحي إلى النبي ﷺ من حالات ثلاثة، وهي :

أـ . صورته الحقيقة: ف يأتي جبريل عليه السلام في صورته التي خلق عليها؛ له ستمائة جناح، وقد سد الأفق وهي حالة نادرة، قد ورد أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقة مرتين: الأولى كانت في الأرض في مكة على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، والثانية في السماء عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج.

بـ . صورة بشر: ف يأتي إليه في صورة رجل سوي، كصورة دحية الكلبي أو أعرابي فيكلمه ويراه الحاضرون، ويسمعون كلامه ويفهمونه، ولكنهم لا يعرفون أنه جبريل؛ ولكن النبي ﷺ يعلم يقيناً أنه جبريل جاء ليعلمهم أمر دينهم، كما في حديث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدٌ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثْرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ...". الحديث.

ج . صورة خفية: ف يأتي إليه جبريل عليه السلام فينزل عليه بالوحى خفية دون رؤيته، ولكن يظهر أثر الوحى، والتغير على رسول الله ﷺ، فيغطُّ غطيط النائم، ويُثقل جسده ثقلاً شديداً، ويتصبّب عرقاً في جبينه في اليوم الشديد البرد، ويكون وقعه عليه كصلصلة الجرس، ويسمع الحاضرون عند وجهه كدوبي النحل دون أن يفهموا منه شيئاً، أمّا هو فيفهمه ويعي ما يوحى إليه به الملك وب مجرد ما ينفصّم عنه يجد ما أُوحى إليه في قلبه، وهو يدرك يقيناً أنه وحي من الله سبحانه من غير لبس.

والقرآن كله نزل على هذه الحالة التي يكون فيها جبريل على ملكيته، ولم يثبت . والله أعلم . أن جبريل عليه السلام أتاه بشيء من القرآن وهو على صورة بشر، وكل ما جاء من ذلك فهو من وحي السنة، وليس من وحي القرآن الكريم . ولعل في ذلك حكمة عظيمة، إذ أنه لو نزل شيء من القرآن في حالة تصور جبريل ﷺ على هيئة بشر لكان في هذا مدخل للشك والتدليس ، ولوجد المشركون سندًا لزعمهم في قولهم الذي حكاه القرآن: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَهْمَمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الدِّيْنِ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهُدَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل:103] . ولذلك نص القرآن الكريم على أن الوحي بالقرآن الكريم كان بواسطة جبريل . أي وليس بأي صورة أخرى من صور الوحي . وذلك في قوله تعالى: (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) [الشعراء:192-195] . وفي قوله تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْفُلُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) [النحل:102] .

ووجه الاستدلال على أن جبريل كان ينزل بصورته الملائكية هو التنصيص على أن مناط هذا النزول ومحله هو قلب النبي الكريم ﷺ.

4 _ الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي والحديث النبوى:

القرآن الكريم: كلام الله أوحى به إلى رسول الله بلفظه، وتحدى به العرب، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، أو عشر سور مثله، أو بسورة من مثله ولا يزال التحدي به قائماً، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدين.

الحديث القدسي: هو ما يخبر به الله نبيه صلى الله عليه وسلم، لفظه ومعناه من الله، ولكن يُسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ال الحديث النبوى: هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، ويكون لفظه ومعناه من النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن مضمونه وحي من الله تعالى.

ويتجلى الفرق بينهم فيما يلي:

- 1- القرآن الكريم: معجز ولو بسورة أو آية بخلاف الحديث القدسي فليس معجز.
- 2- القرآن الكريم: منقول بطريق التواتر ويُكفر من جحد شيئاً منه، أما الحديث القدسي فأغلبه ظني وعلى ذلك لا يُكفر من جحد غير المتواتر.
- 3- القرآن الكريم: من عند الله لفظاً ومعنى، أما الحديث القدسي فمعناه من عند الله وأما لفظه فمختلف فيه.
- 4- القرآن الكريم: لا ينسب إلا إلى الله، بينما الحديث القدسي فينسب إلى قائله (نسبة إخبار).
- 5- القرآن الكريم: تحرم روايته بالمعنى، أما القدسي فلا تحرم.
- 6- القرآن الكريم: الجملة منه تسمى آية والجملة من الآيات تسمى سورة.
- 7- القرآن الكريم: نبدأ به بالاستعاذه والبسملة بخلاف الحديث القدسي.
- 8- القرآن الكريم: يكتب بطريقته الخاصة، بخلاف الحديث القدسي.

ثانياً: نزول القرآن الكريم:

أنزل الله القرآن على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هداية البشرية، فكان نزوله حدثاً جللاً يؤذن بعكانته لدى أهل السماء وأهل الأرض، فأما إنزاله الأول في ليلة القدر فقد أشعر العالم العلوى من ملائكة الله بشرف الأمة الحمدية التي أكرمتها الله بهذه الرسالة الجديدة لتكون خير أمة أخرجت للناس، وأما تنزيله الثاني مفرقاً على خلاف المعهود في إنزال الكتب السماوية قبله فقد أثار الدهشة التي حملت القوم على المماراة فيه، حتى أسفروا لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكم الإلهية ، فلم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليتلقي الرسالة العظمى جملة واحدة ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد، فكان الوحي يتنزل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه، وتسلية له، وتدرجًا مع الأحداث والواقع حتى أكمل الله الدين، وأتم النعمة. والقرآن الكريم تميز بنوعين من أنواع النزول¹:

الأول: نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

الثاني: نزول القرآن منجماً على قلب النبي ﷺ.

ولكل نزول أدلة وحكمة، كما سيأتي بيانه:

1_ نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا:

¹ للعلماء في ذلك مذاهب شتى، جملتها كالتالي:

المذهب الأول: وهو الذي قال به ابن عباس وجماعة، وعليه جمهور العلماء: أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث - إنما نزلناه - نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا تعظيمًا ل شأنه عند ملائكته، ثم نزل بعد ذلك منجماً على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة حسب الواقع والأحداث منذ بعثته إلى أن توفى صلوات الله وسلامه عليه.

المذهب الثاني: روي عن الشعبي: أن المراد بنزول القرآن في الآيات الثلاث ابتداء نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة المباركة، ثم تتبع نزوله بعد ذلك متدرجًا مع الواقع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا هو الذي جاء به القرآن: (وَقُرْآنٌ فَرِيقٌ نَاهٌ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء: 106].

المذهب الثالث: يرى أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، ففي كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، وهذا القدر الذي ينزل في ليلة القدر إلى السماء الدنيا لسنة كاملة، ينزل بعد ذلك منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع السنة. وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسرين، ولا دليل عليه.

المذهب الرابع: يرى بعض العلماء أن القرآن نزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ، مستدلاً بقوله تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) [البروج: 21-22]. ثم نزل من اللوح المحفوظ جملة كذلك إلى بيت العزة، ثم نزل مفرقاً، فهذه تسلسلات ثلاثة.

نزل القرآن الكريم جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. وهنالك عدد من الأدلة التي ساقها العلماء لإثبات هذا النوع من النزول، من أبرزها:

- قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) [البقرة: 185].

- قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَّكَةٍ) [الدخان: 3].

- قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ) [القدر: 1].

ومن المعلوم أنَّ القرآن لم ينزل على النبي ﷺ في شهر واحد وهو شهر رمضان؛ وإنما نزل فيه وفي غيره من الشهور، كما أنه لم ينزل في ليلة واحدة، وإنما نزل في عدد من الليالي والأيام، وبالليل والنهار، والصيف والشتاء، فقالوا إنَّ هذه الآيات تتحدث عن نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا؛ بدليل الآثار التي جاءت توضح ذلك، ومنها:

1. ما جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقُدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً".

2 - وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "فُصِّلَ الْقُرْآنُ مِنَ الذِّكْرِ فَوْضَعَ فِي بَيْتِ الْعَزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فُجِعِلَ جَبَرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُنْزِلُهُ عَلَى النَّبِيِّ وَيُرْتَلُهُ تَرْتِيلًا".

3 - روى الإمام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع: أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّلَامَ فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ".

وهذه الأدلة وغيرها تثبت نزول القرآن جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. ويختتم أنَّ تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة، فأُنْزِلَ فِيهَا جُمْلَةً إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أُنْزِلَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ إِلَى الْأَرْضِ.

2 - نزول القرآن منجماً على قلب النبي ﷺ:

وهذا النوع من النزول قد تضافرت عليه الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة، والتي تثبت نزول القرآن عليه ﷺ منجماً، ومن ذلك:

- قوله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأُهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) [الإسراء: 106].

- قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثِّبَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيْلًا) [الفرقان: 32].

وعن ابن عباس أنه قرأ: "فرقناه" بالتشديد، أي: أنزلناه آية آية، مبيناً، ومفسراً.

كما أنّ الأدلة الكثيرة المتضافة في السنة النبوية التي توضح كيفية نزول جبريل بالقرآن الكريم لآياته وسورة تقطع الشك في نزوله منجحاً على قلبه، وأنّ النبي ﷺ سمعه من جبريل بأذنيه، ووعاه بقلبه، وبلغه للناس كما سمعه.

3_ الحكمة من نزول القرآن منجحاً على النبي ﷺ:

لنزول القرآن الكريم منجحاً على قلب النبي ﷺ في بضع وعشرين سنة حكم كثيرة منها ما نصّ عليه القرآن الكريم أو السنة النبوية، ومنها ما استتبّه العلماء، وما زال المجال واسعاً أمام الباحثين لاستنباط المزيد من الحكم، وإليك الحديث عن بعضها:

3_1_ تثبيت فؤاد النبي ﷺ:

هذه الحكمة قد نصّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثِّبَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيْلًا) [الفرقان: 32]، يعني لنقوي به قلبك، فإنَّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشدّ عنایة بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه، وبتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصير عنه العبارة.

3_2_ رد شبهة الكفار والإجابة عن أسئلة السائلين:

وقد هذا قد جاء في قوله تعالى: (وَلَا يَأْتُونَكَ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) [الفرقان: 33]، أي: لا يأتونك بحججة أو شبهة، ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، فأخبره الله أن يجيئهم بأنّ أحكام الله لا تتبع أهواء البشر، وأنه لا يملك من الأمر شيئاً، وإنما هو مبلغ ما يُوحى إليه.

3_3_ فضح مكائد الأعداء في حينها:

كان القرآن الكريم ينزل على رسوله الكريم بكشف عورات أعدائه بصورة تهز كيان الباطل وتعلي بنيان الحق، وتأكد صدق الرسول ﷺ، وأنّ هذا القرآن منزل من الله تعالى وهذا كثير، كفضحه للمنافقين مثلاً، (يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّهُمْ إِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) [التوبة: 64]، وقوله تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحَكَّمٌ وَدُكَرٌ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ) [محمد: 20]

3_4 مسيرة الحوادث في عهد النبوة:

لحكمة أرادها الله تعالى: جعل القرآن يمسّ واقع الحياة بأحداثها، ويحدث فيها تغييراً حياً يرتبط بحياتهم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، فجعل بعض الآيات تنزل مرتبطة ببعض أسباب النزول حتى يأخذوا من الأحداث والواقع التي تمر بهم دروساً قوية مؤثرة في حياتهم، ويدفعهم ذلك إلى التساؤل للاستماع إليها، والتفكير في معانيها، وأخذ الدروس وال عبر القوية من خلالها، ومن ذلك مثلاً: نزول أوائل سورة المجادلة استجابة لشكوى امرأة -تسمى خولة بنت ثعلبة- والتي اشتكت من زوجها الذي ظاهر منها (أي قال لها أنت على كظهر أمي)، فتوقفت في هذا الأمر حتى نزل القرآن ليبين حكم الله في قضيتها ويوضح الأحكام المتعلقة بالظاهرة.

3_5 التدرج ومرااعة الأولويات في التربية والتعليم:

وقد كان لهذا التجيم فوائد عظيمة في التدرج بهم في تلقي الوحي، فهو يساعد دون شك على سهولة الحفظ لألفاظه، والتدبر والفهم لمعانيه، والتدرج مع النفوس في تطبيق أحكامه، وذلك لأنّ منهج التدرج في التربية والتعليم والتغيير له أثر كبير في تحقيق الأهداف المرجوة وتقبل المكلفين للدعوة؛ وذلك لأنّ الناس لا يمكن أن يتخلوا عن عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكياتهم بين يوم وليلة، وفي ذلك تعليم للأمة في كلّ زمان ومكان أن الإصلاح الاجتماعي يحتاج إلى أولوية في الخطاب، وقراءة الواقع الدعوة، ومعرفة تامة بنفسية المخاطبين وعاداتهم وعقائدهم وطاقتهم، وأنّ ترك هذا الفقه الذي نتعلم من تتبع نزول القرآن لمعالجة ذلك الواقع تخل عن منهج الله الذي رسمه للإصلاح، وسبب من أعظم أسباب فشل بعض الدعاة.

فالتخلي عن الباطل يحتاج إلى تدرج، كما أن التحلي بالحق يحتاج إلى فقه واسع في التدرج حتى تبلغ النفوس البشرية مبلغاً في الكمال الذي يريد الله تعالى، ولا بد أن يكون التدرج وفق منهج الأولويات، ومن هنا بدأ الإسلام في تربيتهم بقضايا الإيمان وأصول الأخلاق ثم تدرج في فرض العبادات ابتداءً بالصلوة ثم الصيام ثم الزكاة ثم الحج، وتدرج معهم في فضائل الإسلام وشعائره الأخرى، فلو نزلت الفرائض جملة لشُقَّ على قلوبهم قبلها، ولذلك أنزله الله وفق علمه وحكمته بما يصلح مع نفوس البشر، ومثال ذلك آيات التدرج في تحريم الخمر.

3_ تحقیق اليقین علی أن القرآن الکریم کلام رب العالمین:

فالقرآن الكريم من خلال نزوله آيات يدل على أنه من عند الله العزيز الحكيم؛ وذلك من خلال التتبع لما نزل أولاً وما نزل آخرًا، وما بينهما، في بعض وعشرين سنة، وفي أماكن مختلفة، وأزمنة متباينة، وأحوال متنوعة، لكننا لا نجد فيه اختلافاً بين آياته، وكلماته، وحروفه، فألفاظه متتشابهة، ومعانيه محكمة، وأسلوبه كله فريد متناسق لا اختلاف فيه ولا تضاد، كما قال تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [النساء: 82].

4_ أَوْلَ ما نُزِّلَ وآخِرُ ما نُزِّلَ:

اعتنى العلماء عناية خاصة بأول القرآن نزولاً، وآخر ما نزل منه، كما اعتبروا بأول ما نزل في مكة، وآخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في المدينة وآخر ما نزل فيها، وأول ما نزل في كل حكم، وآخر ما نزل فيه، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

4_1_ أَوْلَ ما نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

اختلاف العلماء في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم إلى عدّة أقوال أشهرها:

القول الأول: أن أول ما نزل من القرآن صدر سورة اقرأ، وهذا القول رجحه جمهور العلماء من السلف والخلف، وتسنده الأدلة الواضحة من ذلك ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حِبَّ إِلَيْهِ الْحِلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعْبُدُ الْلَّيَالِيَّ ذَوَاتُ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَرَوَّذُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى حَدِيجَةَ فَيَتَرَوَّذُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحُقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءِ،

فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: أَقْرَأْ ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي حَتَّى يَلْعَمْ مِنِي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: أَقْرَأْ ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي التَّانِيَةَ حَتَّى يَلْعَمْ مِنِي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخْذَنِي فَعَطَنِي التَّالِيَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: (أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمِ (4) عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) [العلق: 1-5]، فَرَجَعَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ.

وقد جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "أول سورة نزلت من القرآن (سورة أقرأ)". ومرادها بالسورة الآيات الخمس الأولى منها.

القول الثاني:

ذهب طائفة من العلماء إلى أنّ أول ما نزل من القرآن سورة المدثر، فقد روى الشیخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: "سألت جابر بن عبد الله، أي القرآن أنزل قبل؟ قال: (يا أبا المدثر)". والقول الأول أرجح من الثاني وذلك لأدلة كثيرة، منها:

ما أجاب به السيوطي في الإنقاذه عن الحديث الذي استدل به أصحاب القول الثاني:

- قد ثبت في الصحيحين عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: بينما أنا امشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض. ثم طلب النبي ﷺ أن يُرملوه، وبعدها نزلت سورة المدثر.
- أنّ مراد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما إنما هو فيما نزل سورة كاملة، ذلك لأنّ المدثر اكتمل نزولها قبل سورة أقرأ، التي نزل منها صدر السورة فقط.

- أنّ مراد جابر يتعلق بأولية الإنذار، لا مطلق الإنباء، فمن المعلوم أنّ سورة المدثر: نزلت آمرة النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطلق داعية إلى الله منذراً أهل الشرك والضلالة مغبة ما هم فيه من عبادة الأوثان وتقديس الأصنام. وأما سورة العلق فلم يكن فيها شيء من ذلك، بل هو مجرد الإنباء والتهيئة لتلقي رسالة السماء.

القول الثالث:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ أول ما نزل من القرآن هو سورة الفاتحة، ودليلهم ما رواه البيهقي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال لخدية: "إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً"، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم، وتصدق الحديث". فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: "اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلق فقصاً عليه، فقال: "إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد! فانطلق هارباً في الأفق، فقال: لا تفعل، إذا أتاك ما ثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتي فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * ... وَلَا الضَّالِّينَ) والحديث مرسل رواته ثقات.

- والحديث وإن كان رجاله ثقات إلا أنه مرسل لا يقوى على معارضته حديث عائشة، بل نقل الزركشي في "البرهان" عن القاضي أبي بكر في "الانتصار" أن هذا الخبر منقطع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ البيهقي قال عنه: إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها -أي الفاتحة- بعدها نزلت عليه: (اقرأ).

القول الرابع:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ أول ما نزل من القرآن هو البسمة، ودليلهم: ما أخرجه الوادي بإسناده عن عكرمة والحسن قالاً: "إنّ أول ما نزل من القرآن: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، وأول سورة: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)".

- وهذا الحديث لا يحتاج به أمام حديث عائشة في الصحيحين.
وأصح الأقوال وأولاها هو القول الأول في أنّ أول ما نزل من القرآن بإطلاق هو قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ).

4_ آخر ما نزل من القرآن الكريم:

اختلف العلماء في ذلك أيضاً إلى أقوال عديدة، منها:

القول الأول: آخر ما نزل هو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) [البقرة: 278]. فقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها آخر آية نزلت (آية الربا).

القول الثاني: أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [البقرة: 281]. وقد وردت روایات كثيرة عن ابن عباس توضح ذلك.

القول الثالث: أن آخر آية نزلت هي آية الدين للأثر الوارد عن ابن عباس قال آخر القرآن عهدا بالعرش آية الدين: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَاءِنُتُم بِدِيْنِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلِيُكْتَبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعُدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلِمَهُ اللَّهُ فَلِيُكْتُبْ وَلِيُمْلِلَ الدِّيْنُ عَلَيْهِ الْحُقُوقُ وَلِيُنَقِّلَ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الدِّيْنُ عَلَيْهِ الْحُقُوقُ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَلَ هُوَ فَلِيُمْلِلَ وَلِيُهُ بِالْعُدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتَنْدَكِرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشُّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيَسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَيَّنُتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: 282].

والظاهر من هذه الأقوال الثلاثة أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، خاصة وأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل وذلك صحيح من هذه الجهة، ومن جهة قرب نزولها من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول الرابع: أن آخر ما نزل هو قوله تعالى: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) [النساء: 176]، فقد روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال: "آخر آية نزلت: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ)".

القول الخامس: إن آخر ما نزل قوله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا) [النساء: 93]، فقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآية: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا)، وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء".

القول السادس: إن آخر ما نزل سورة المائدة، وهو مروي عن عائشة وغيرها. فقد روى الترمذى عن عائشة، وعبد الله بن عمرو قولهما: "آخر ما نزل: سورة المائدة".

القول السابع: إن آخر ما نزل سورة النصر. فقد أخرج مسلم في الصحيح عن ابن عباس قال: "آخر سورة أنزلت: (إِذَا جَاءَ نَصْرٌ اللّهُ وَالْفَتْحُ) إلى آخرها".

القول الثامن: إن آخر ما نزل هو قوله: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة: 3]، فقد روى البخاري ومسلم في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا عشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)، قال عمر: "قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة".

وهذه الآية نزلت في إكمال الدين والشرع في حجة الوداع وليس في جانب إكمال القرآن الكريم.

* ومن أحسن ما قيل في هذا الاختلاف:

- هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

- يجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن.

- يحتمل أن كلاًًاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه أو قبل مرضه بقليل.

- يحتمل أن تنزل هذه الآية - التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وسلم - مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها بعد رسم تلك، فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب.

3_4 فوائد معرفة أول وآخر ما نزل:

معرفة أول وآخر ما نزل فوائد عديدة، منها:

أ- معرفة تدرج القرآن في النزول، وما الأمور التي نزل بشأنها الوحي أولاًً، وذلك للاستفادة منها في العلم والدعوة، وترتيب سلم الأولويات في حياة العلماء والدعاة.

- بـ- معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحكام والتشريعات.
- جـ- ضبط ورصد كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، لما له من المنزلة العظيمة في النفوس والقلوب.

الحاضرة الثالثة: جمع القرآن وتدوينه

المراد بجمع القرآن الكريم حفظه في الصدور وكتابته في السطور، وقد تحقق جمع القرآن بنوعيه حفظاً وكتابة في جميع العهود.

ففي عهد النبي صلى الله عليه وسلم توادر حفظه في الصدور، كما تمت كتابته، كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب.

وفي عهد أبي بكر جمع أوراق القرآن وما كتب في مكان واحد.

وقد تحوز العلماء في إطلاق جمع القرآن في عهد عثمان الذي أمر بكتابته ونسخه.

وما زال جمع القرآن - حفظاً وكتابة - محققاً وسيقى كذلك إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم: (إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: 9].

1_ الجمع في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي عهد النبي صلى الله عليه وسلم توادر حفظه في الصدور، كما تمت كتابته كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب. وكان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً، أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادلة عمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وغيرهم من المهاجرين، ويكتفي أن نعلم من كثرهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة ضعفهم أيأربعون ومائة.

أما الحفظة من الأنصار فهم كثيرون، أشهرهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن ثابت، وعبدة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري...

هذا عن جمع القرآن حفظاً وتلاوة، أما الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه فلم تكن عناية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمتعهم من توثيق القرآن بكتابته وتدوينه، فقد اتخذ الرسول

صلى الله عليه وسلم من أصحابه كتبة للوحى، منهم زيد بن ثابت وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من حضر منهم بالكتابة لما ينزل عليه من القرآن، فيكتب الكاتب: إما على العسب أو اللخاف أو الرقاع أو قطع الأديم أو عظام الأكتاف والأضلاع، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مجموعاً في صحف قال تعالى: "رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحْفًا مُّطَهَّرًا".

وروى عن ابن عباس أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: "ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا".

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع.

لكن المقصود هو ما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح: "المراد بالجمع هنا جمع مخصوص: وهو جمع متفرقه في صحف، ثم جمع تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور".

أبي والأربعة الأحباب والوحى قد كان له كتاب

حنظلة وخالد العشيره وزيد والزبير والمغيرة

وعمره ثم ثابت وزيد معاوية وعامر يزيد

وسائل وأدوات الجمع والكتابة:

جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على وسائل ميسرة وبسيطة فقد كتبوه على عدة أدوات، منها:

1-العسب: وهي ورق أو جريد النخيل

2-واللخاف: وهي الحجارة الرقيقة

3- والرقاء: وهي قطع من الجلد أو الورق

4- والأقتاب: وهي قطع خشبية

5- الكراييف: وهي أطراف العسب



مميزات هذا الجمع:

1- "كتب القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على الأحرف السبعة قال رسول الله صلى عليه وسلم: إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرئوا ما تيسر منه.

2- "أجمع العلماء على أن جمع القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان مرتب الآيات واحتلقو في ترتيب السور.

3- "بعض ما كتب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم نسخت تلاوته وظل مكتوباً" حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، منها قالت عائشة: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات بحرمن، ثم نسخت بخمس معلومات فنوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن.

4- لم يكن القرآن الكريم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مجموعاً في مصحف واحد.

سؤال: لماذا لم يجمع المصحف في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟

الجواب:

الاعتبارات التي كانت سبباً في عدم جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

أ- أنه لم يوجد من دواعي كتابته في صحف أو مصاحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر حتى كتبه صحفاً، ولا مثل ما وجد على عهد عثمان حتى نسخه في مصحف.

ب- أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان بقصد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات فلما انقضى نزوله بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم شرع الخلفاء في جمعه.

ج- بسبب كثرة حفظه من قبل الصحابة، والنبي صلى الله عليه وسلم، وقد أمن صلى الله عليه وسلم من نسيانه، قال تعالى: (سُنْقِرُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) [الأعلى: 5-6]

د- أنّ القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجماً في مدى عشرين سنة أو أكثر.

ه- أنّ ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله، فنزوله كان على حسب الأسباب، وأما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات، فلو جمع في صحف أو مصحف لكان عرضة للتغيير كلما وقع نسخ أو حدث سبب.

هـ- قلة الوسائل والأدوات، والعصر كان عصر حفظ وليس عصر كتابة وتدوين.

سؤال: هل صحيح أنه قد ورد حصر حفظة القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم: في 3 أو 4 أو 7 صحابة فقط؟

الجواب: نعم، ولكن لذلك تفسير، فقد ذكر البخاري ثلاث روايات في حصر عدد الصحابة الذين حفظوا القرآن، وهي:

الرواية الأولى: ذُكر عبد الله عند عبد الله بن عمرو فقال: ذاك رجل لا أزال أحبه بعدها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود فبدأ به وسلم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل".

الرواية الثانية: رواية أنس وفيها أنه قال: مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ونحن ورثناه".

الرواية الثالثة: عن أنس أيضاً قال: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار: أبي ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد بن ثابت، قلت لأنس: من أبو زيد؟ قال أحد عمومتي .

لكن قد ذكر الحافظ ابن حجر والسيوطى وغيرهما أن الروايات لا تفيد الحصر، وكذلك بالنسبة لرواية أنس في تحديد الأربعة الأنصار أنها كانت قيد المفاخرة بين الحينين.

وذكر الإمام النووي في شرح هذه الأحاديث سبب هذا التخصيص بقوله: "أن هؤلاء أكثر ضبطاً للفاظه، وأنهن لأدائهم. أو لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه منه صلى الله عليه وسلم مشافهة، وغيرهم اقتصروا على أخذ بعضهم من بعض. أو لأن هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ عنهم، أو أنه صلى الله عليه وسلم أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم فهم أبعد من غيرهم في ذلك فليؤخذ عنهم".

والجمع إذن جمعان: جمع في الصدور بمعنى حفظه، وجمع في السطور أو في الكتب.

- فالأول: الجمع في الصدور: وهو تيسير حفظه للناس في صدورهم.
- والثاني: الجمع في السطور، وقد تم بعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم على مرحلتين:
 - في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

2_ جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد، حتى كثر القتل في الحفاظ في حروب الردة، فقد استشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة، قيل إنه قتل سبعون وقيل خمسمائة، وأيّاً كان فإنّ عدد القتلى قد هال المسلمين، فخشى عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف، ففكّر في عرض الأمر على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن الكريم.

روى البخاري أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "أُرسِلَ إِلَيْيَ أَبُو بَكْرَ بَعْدَ مَوْتِهِ لِيَتَّمِمَ أَهْلَ الْيَمَامَةِ إِذَا عَمِرَ بَنَ الْخُطَابِ عَنْهُ" ، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحر (اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنّي أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله خير؛ فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا تفهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن فاجتمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني، حتى شرح صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فتبتعدت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبه مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: (لَقَدْ

جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).²

وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى، ثم عند عمر في حياته، ثم عند حفصة بنت عمر.



² وفيه رواية أخرى عن خارجة بن زيد أنّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (سُخّحت الصحفُ في المصاحفِ، ففقدت آيةً من سورة الأحزاب كثُرَّ أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها، فلم أجدها إلَّا مع خزيمة بن ثابت الانصاري الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رجلين، وهو قوله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ} (الأحزاب: 23)) رواه البخاري.

أسباب اختيار زيد بن ثابت³:

- 1- أنه كان من حفاظ القرآن الكريم فكان يحفظه عن ظهر قلب.
- 2- أنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم.⁴
- 3- أنه من كتاب الوحي.⁵
- 4- خصوبة عقله وشدة ورعيه وكمال خلقه وأمانته وغيرها من الصفات الحميدة التي كان يتحلى بها رضي الله عنه.

³ أول مشاهده غزوة الخندق -أو الأحزاب-، وكان ينقل التراب مع المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَا إِنَّهُ نَعْمَ الْغَلَامُ»، وكانت راية بي مالك بن النجّار يوم "تبوك" مع عمارة بن حزم رضي الله عنه، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعها إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، فقال عمارة: يا رسول الله، بِأَعْلَمَ عَيْ شَيْء؟ قال: «لَا، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ يُعَذِّمُ، وَكَانَ زَيْدُ أَكْثَرَ أَحَدًا مِنْكَ لِلْقُرْآنِ»، رواه الحاكم في "المستدرك".

وكان رضي الله عنه أحد الأذكياء، فقد تعلم عدة لغات منها السريانية؛ حيث أمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعلم السريانية -لغة اليهود-؛ ليقرأ له كتبهم، وقال له: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنْتُ بِيهُودَ عَلَى كِتَابٍ»، قال: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعْلَمَنَّهُ لَهُ (أي كتاب اليهود)، قال: فَلَمَّا تَعْلَمَنَّهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَيْهِ يَهُودٌ كَتَبَتْ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ. رواه الترمذى. وقد أشاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعلمه بالمواريث فقال: «أَفَرَضْتُ أُمَّتِي زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ» رواه الحاكم في "المستدرك"، أي: أعلمهم بعلم الفرائض أو المواريث، وعن سليمان بن يسار رضي الله عنه، قال: "ما كان عمر، وعثمان يُقدِّمان على زيد أحَدًا في الفرائض، والفتوى، القراءة، والقضاء".

⁴ وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِي: قرأ زيد بن ثابت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت؛ لأنه كتبها لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات؛ ولذلك اعتمد أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كِتَبَةَ الْمَصَاحِفِ، رضي الله عنهم أجمعين.

⁵ روى الطبراني في المعجم الأوسط عن زيد بن ثابت، قال: «كنت أكتب الوحي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان إذا نزل عليه أخذته بُرْخَاءً شديدةً، وعرقَ عرقًا شديداً مثل الجماني، ثم سُرِّي عنه، فكانت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كيسرة، فأكتب وهو مُلْتَهِي، فما أَفْرَغَ حتي تکاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، وحتى أقول: لا أمشي على رجلي أبداً، فإذا فرغت، قال: (اقرأه)، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس»

منهج زيد بن ثابت في الجمع:

- 1- كان زيد بن ثابت يحفظ القرآن كله في صدره، وكان القرآن مكتوباً عنده، وقرأ القرآن مرتبين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لم يعتمد على حفظه، ولا على ما هو مكتوب عنده، فقد سار على منهج رصين يقول زيد: "فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال".
- 2- يجمع ما كان محفوظاً في صدور الصحابة، ولا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقوه من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة.
- 3- لا يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنه كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ميزات هذا الجمع:

- 1- جمع القرآن الكريم في هذا العهد على أدق وجوه التحري والإتقان وحظي هذا الجمع على إجماع الأمة عليه.
- 2- أهل في هذا الجمع ما نسخت تلاوته من الآيات.
- 3- هذا الجمع أثبت فيه ما جاء في العرضة الأخيرة.
- 4- أجمع العلماء على أن هذا الجمع كانت الآيات فيه مرتبة، واختلفوا في السور هل كانت مرتبة أم رببت في عهد عثمان رضي الله عنه.
- 5- اتفق العلماء على أنه كتبت نسخة واحدة من القرآن حفظها أبو بكر رضي الله عنه.
- 6- أبو بكر رضي الله عنه لم يلزم الناس باتباع هذا المصحف الذي جمعه.

مكانة هذا الجمع:

أجمع الصحابة على صحة هذا الجمع ووقته وسلامته من الزيادة والنقصان وتلقوه بالقبول والعناية قال علي رضي الله عنه: "أعظم الناس أجرًا في المصايف أبو بكر فإنه أول من جمع ما بين اللوحين".

وهنا في هذا العصر ظهرت تسمية المصحف للقرآن الكريم، وبقي هذا المصحف عند أبي بكر الصديق حتى وفاته، ثم انتقل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حتى وفاته، ثم انتقل إلى ابنته حفصة أم المؤمنين ثم بقي عند حفصة إلى أن طلبه عثمان رضي الله عنه لنسخه، بعد ذلك أعاده إليها، ولما توفيت حفصة أرسل مروان بن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنه لأن يأتي به، فأتي به إلى مروان فمزقه خشية أن يقع خلاف بينه وبين ما نسخ عثمان ابن عفان رضي الله عنه.

3_ الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه:

لئن كان جمع أبي بكر للقرآن خوفاً من ضياع المكتوب بموت حفظة القرآن، فإن جمع عثمان بن عفان كان خوفاً من اختلاف الأمصار في وجوه القراءات، حين قرأ كل مصر بقراءة تختلف عن قراءة مصر آخر، وأدى ذلك إلى خطأ بعضهم بعضاً، وفي قصة حذيفة بن اليمان التي ستأتي خير بيان لأسباب الجمع أو النسخ بتعبير أصح.

فعندما اتسعت الفتوحات الإسلامية في البلاد، وانتشر الصحابة يعلمون الناس القرآن وأمور الدين، كان كل صاحبي يقرأ بما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي ابن كعب، وأهل العراق يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود، فيأتي أهل الشام بما لا يأتي به أهل العراق، وكذلك العكس، وهذا ما أدى إلى الاختلاف وإلى النزاع والشقاق بينهم، فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه حيث أعلم حذيفة بما يحدث بالأمصار، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام مع أهل العراق في فتح أرمينيا فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة

لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسل إلينا بالصحف نسخها بالمصحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم".

وبعد أن أكمل عثمان عملية الجمع (النسخ)، أرسل النسخ إلى الأمصار⁶ وأرسل مع كل نسخة قارئ بنفس القراءة التي أرسلها، مثلاً: أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدني، والمغيرة بن أبي شهاب بالشامي، وعبد الرحمن السلمي بالكوفي، وعبد الله بن السائب بالملكي، وعامر بن عبد القيس بالبصرى... وهكذا، ثم أمر عثمان بجمع كل ما عدا هذه النسخ وأمر بحرقها، وألزم الناس باتباع المصحف الإمام - وهو ما يسمى بالمصحف العثماني أي: المرسوم بالرسم العثماني-. والذي كتبه ونسخه بعد إجماع الصحابة ومشورتهم بذلك، ووافق الصحابة عثمان على هذا الفعل وأجمعوا على قبول ذلك.

قال زيد بن ثابت: فرأيت أصحاب محمد يقولون: "أحسن والله عثمان، أحسن والله عثمان، وقال علي رضي الله عنه: "لولا صنعه عثمان لصنعته".

لجنة النسخ:

اختار عثمان رضي الله عنه أربعة لنسخ المصحف، وهم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث.

⁶ اختلف العلماء في عدد النسخ، فمنهم من قال أربعة، ومنهم من قال خمسة، ومنهم من قال ستة، ومنهم من قال سبعة، ومنهم من قال ثمانية. وقد أرسلت إلى: الشام والكوفة والبصرة ومكة والمدينة، واحتفظ بنسخة لنفسه رضي الله عنه، ثم رد نسخة حفصة رضي الله عنها. ثم توفي حفصة رضي الله عنها وأحرقها مروان بن الحكم لغلا تختلط فيما بعد بالمصحف الذي أجمع عليه الناس.

وأخذ عثمان نجحا في نسخ القرآن الكريم:

1- خطب في الناس وبين لهم أسباب الجمع وطلب منهم بأن يأتي كل واحد بما عنده من الصحف التي كتب عليها القرآن.

2- أرسل عثمان إلى حفصة أن ترسل إليه مصحف أبي بكر.

3- كلف زيد وأصحابه بنسخ المصاحف منها، وقال لهم إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش.

4- أمرهم أن يرسموا الكلمات بحيث تحتمل القراءات التي قرأ بها القرآن، مثال: ملك وليس مالك.

مميزات هذا الجمع:

تميز هذا الجمع بمزايا عديدة، من أهمها:

1- كُتب القرآن على حرف واحد من الأحرف السبعة وهو حرف قريش، وقد كتب مجردًا حتى يحتمل أحرفًا أخرى، فإن لم يحتمل إلا حرفاً واحدًا كتب بلغة قريش.

2- إهمال ما نُسخت تلاوته.

3- الاقتصار على القراءات الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم التي جاءت في العرضة الأخيرة.

4- كان هذا النسخ لما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته.

5- رُتبَت الآيات وال سور على الوجه المعروف الآن.

6- جمعت هذه الصحف بين دفتين.

الحاضرة الرابعة: علم المكي والمدني

من المعلوم أن الرسول ﷺ قضى فترة من حياته في مكة قبل البعثة وبعدها، ثم هاجر إلى المدينة النبوية وأقام فيها إلى وفاته ﷺ.

وقد نزل عليه القرآن الكريم في الأمصار والقرى والجبال والوهاد والأودية والسفوح والدور والبراري وفي أوقات مختلفة في الليل والنهار، والسفر، والحضر، والصيف، والشتاء، والسلم، والحرب.

وقد اعنى العلماء عنابة فائقة في معرفة مكان النزول وزمن النزول لما في معرفة ذلك من فوائد عديدة لفهم النصوص القرآنية واستيفاء معانيها واستقصاء مدلولاتها.

وعندما كان القرآن ينزل في مكة أول البعثة كان المسلمين قلة، وكان المشركون كثرة وللحديث مع الكفار أسلوبه ومخاطبة المسلمين طريقتها.

فالقرآن في مكة يدافع عن القلة من المسلمين، ويرفق بهم وينافح عنهم وسط هذه البيئة من الأعداء المشركين وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويثبت قلوبهم.

والقرآن في مكة يقارع الخصوم ويحطم معتقداتهم الزائفة بالحججة والدليل ويدفع الشبهات، ويبطل الخرافات، ويكشف الأباطيل والترهات، وهم أهل لجاج وعناد، وإصرار واستكبار وظل القرآن ينافحهم حتى أقام الحجة عليهم وأنشأ جماعة إسلامية كانت نواة الدولة الإسلامية.

وهاجر الرسول ﷺ بهذه الجماعة والتقوى بجماعة أخرى من المسلمين في المدينة، وآخى بين الجماعتين ومزج بينهما مزيجاً كان نتاجه نشأة الدولة الإسلامية الصالحة المؤهلة لتلقي ما بقي من قواعد الإسلام وأحكام التشريع.

ونزل القرآن على المسلمين في المدينة يبسط أحكام الدين، ويرسي قواعده ويبني المجتمع الإسلامي ومؤسس صرح الدولة.

وبلا ريب أن معرفة ما نزل بمكة في تلك الظروف ولتلك الأهداف والأغراض ومعرفة ما نزل في المدينة، كذلك يعطي منهاجاً سليماً للدعوة الإسلامية ودروساً للدعاة في مختلف العصور والأمكنة.

❖ عنابة العلماء بالمكي والمدني:

فلا عجب إِذَا أَن يعْتَنِي الْعُلَمَاء بِذَلِك وَأَن يُولُوهُ اهْتِمَامَهُمْ، فَهَذَا عَلَى بْن أَبِي طَالِبٍ رض قَالَ: "وَاللَّهِ مَا نَزَّلَتْ آيَةٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيمَ أَنْزَلْتُ، وَأَيْنَ أَنْزَلْتُ، إِنْ رَبِّي وَهُبْ لِي قَلْبًا عَقُولًا وَلِسَانًا سَئُولًا".
وَكَانَ عَلَى بْن أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ عَلَى الْمَنْبِرِ: "سَلُونِي، فَوَاللَّهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ، وَسَلُونِي عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ مَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَبْلِيلَ نَزَّلَتْ أَمْ بِالنَّهَارِ، أَفِي سَهْلِ أَمْ فِي جَبَلِ".
وَهَذَا أَبْنَى مُسَعُودٍ رض يَقُولُ: "وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أَنْزَلْتَ، وَلَا أَنْزَلْتَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أَنْزَلْتَ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَبَلَّغُهُ إِلَبْ لِرَكْبَتِ إِلَيْهِ".

وَتَظَاهِرُ أَهْمَيَتُهُ مِنْ فَوَائِدِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، وَنَذَكِرُ مِنْهَا مَا يَلِيهِ:

-تمييز الناسخ من المنسوخ، نظراً إلى تأخر المدنى عن المكى.

-أنه يعين الدارس على معرفة تاريخ التشريع، والوقوف على سنة الله الحكيمية في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكرية والنفسية، ثم بناء الأحكام والأوامر والمواهي عليها، مما كان له الأثر الكبير في تلقى الدعوة الإسلامية بالقبول.

-الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالماً من التغيير والتحريف، واهتمام المسلمين به وبعلومه خير دليل على ذلك.

-حرص السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم وجدهم الكبير في الحرص على المكى والمدنى.

-تحصيل الفهم الصحيح لأيات القرآن وسوره، لأن معرفة تاريخ النزول وظرف الآيات يساعد على فهمها وإدراك مقاصدتها، فقطع النصوص عن سياقها الزمانى أو المكانى يضيع سبيل الفهم السليم.

-تدوين أساليب القرآن الكريم، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة.

-الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية الكريمة.

❖ الخلاف في اعتبار المكي والمدنى:

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال:



-**القول الأول**: اعتبار المكان، أي أن ما نزل من السور والآيات بمكة وضواحيها، فهو مكي، وما نزل بالمدينة وضواحيها، فهو مدني. وضعف هذا القول من ضعفه من أهل العلم، لأن ضابط اعتبار المكان فيه قصور، كقوله تعالى: **{ولَكُنْ بَعْدَ عَلَيْهِمُ الشَّقَّة}** [التوبه: 42]، فإنه نزل بتبوك.

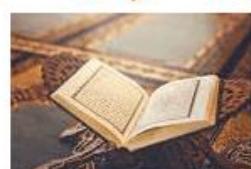
-**القول الثاني**: اعتبار الزمان، أي أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعدها فهو مدني، وهو الصحيح المشهور.

فمثلاً قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}** نزلت يوم الفتح بمكة، وتعتبر هذه الآية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة.



وقوله تعالى: **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَقْمَتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}** [المائدة: 3]. نزلت بعرفة، وتعتبر هذه الآية أيضاً مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة.

-**القول الثالث**: اعتبار المخاطب، وهو أن ما كان فيه الخطاب بـ:"يا أيها الذين آمنوا" فإنه مدني وما وقع الخطاب فيه بـ:"يا أيها الناس" فإنه مكي .



ويرد على هذا القول أمران:

- الأول: أن في القرآن ما نزل غير مصدر بأحدهما نحو: "يا أيها النبي اتق الله" وفيه من السور ما لم يتضمن أي النداءين.

- الثاني: أن هذا الضابط غير مطرد فهناك آيات مدنية صدرت بـ:"يا أيها الناس" والعكس كالنساء فأولها وهي مدنية "يا أيها الناس"، والبقرة مدنية وفيها "يا أيها الناس" وسورة الحج مكية وفيها "يا أيها الذين آمنوا".

❖ تحديد العلماء للسور المدنية والمكية⁷:

أجمع العلماء على تحديد معظم السور لكن اختلفوا في بعضها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

- عشرون - 20 - سورة مدنية.
- واثنتان وثمانون - 82 - سورة مكية.
- واثنتي عشر - 12 - سورة اختلفوا فيها.

السور المدنية: -20-

وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، والنصر.

السور المختلف فيها: -12-

وهي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصاف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، والناس.

السور المكية: اثنان وثمانون - 82 -، وهي التي لم تذكر أعلاه.

ضبط هذه السور: يكون من خلال:

1-نظم السور المدنية:

مَا جَاءَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ الْمَكْرُوْحِ وَالْمَدْنِيُّ بَعْدُ يَا ذَكَرِيُّ	وَعَدُّهَا سِتٌّ وَعِشْرُونَ وَدَّا بَيَانًا كَمَا أَطَالِبُ الْعِلْمِ حُذَا
بَقَرَةُ آلُّ نِسَاءٍ وَالْمَائِدَةُ أَنَفَالُ التَّوْبَةُ بَعْدُ وَارِدَةٍ	وَالنُّورُ وَالْأَحَزَابُ مَعَ مُحَمَّدٍ وَالْفَتْحُ ثُمَّ الْحُجَّاجُ أَوْجِدِ

⁷ لا يقصد بوصف السورة مكية أو مدنية أنها تجمعها كذلك، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية، وفي المدنية بعض آيات مكية. ولذلك نجد مثلاً قول العلماء: سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية إلا آية كذا وكذا.

وَسُورَةُ الْحَدِيدِ عُدَّ بَعْدَهَا
تِسْعًا عَلَى التَّرْتِيبِ وَاضْبِطْ عَدَّهَا
بَيْنَهُ زَلَّةُ وَالنَّصْرُ
وَفَكُّ وَالنَّاسُ تَمَّ الْحَصْرُ

ومثلها ما نقله السيوطي عن أبي الحسن بن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ: المديني باتفاق عشرون سورة
وال مختلف فيها اثنتا عشر سورة وما عدا ذلك مكي باتفاق. ثم نظم في ذلك نظماً:

يا سائلي عن كتاب الله مجتهدا ... وعن ترب ما يتلى من السور
وكيف جاء بها المختار من مصر ... صلى الإله على المختار من مصر
وما تقدم منها قبل هجرته ... وما تأخر في بدو وفي حضر
ليعلم النسخ والتخصيص مجتهدا ... يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر
تعارض النقل في أم الكتاب وقد ... تؤولت الحجر تنبئها لمعتبر
أم القرآن وفي أم القرى نزلت ... ما كان للخمس قبل الحمد من أثر
وبعد هجرة خير الناس قد نزلت ... عشرون من سور القرآن في عشر
 فأربع من طوال السبع أولها ... وخامس الخمس في الأنفال ذي العبر
وتوبة الله إن عدت فсадسة ... وسورة النور والأحزاب ذي الذكر
وسورة لنبي الله محكمة ... والفتح والحجرات الغر في غرر
ثم الحديد ويتلوها مجادلة ... والحضر ثم امتحان الله للبشر
وسورة فضح الله النفاق بها ... وسورة الجمع تذكار مذكر
وللطلاق وللتريم حكمهما ... والنصر والفتح تنبئها على العمر
هذا الذي اتفقت فيه الرواية له ... وقد تعارضت الأخبار في آخر
فالرعد مختلف فيها متى نزلت ... وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر
ومثلها سورة الرحمن شاهدتها ... مما تضمن قول الجن في الخبر
وسورة للحواريين قد علمت ... ثم التغابن والتطفييف ذو النذر
وليلة القدر قد خصت بملتنا ... ولم يكن بعدها الزلزال فاعتبر
وقل هو الله من أوصاف خالقنا ... وعوذتان ترد البأس بالقدر
وذا الذي اختلفت فيه الرواية له ... وربما استثنى آي من السور

وما سوى ذاك مكى تنزله ... فلا تكن من خلاف الناس في حصر
فليس كل خلاف جاء معتبرا ... إلا خلاف له حظ من النظر

2- ضوابط اجتهادية: تذكر عدد آيات سورة البقرة الذي هو: 286.

فعدد السور المكية هو: 86

وعدد السور المدنية هو: 28

ومجموع (114=86+28) هو عدد سور القرآن الكريم.

❖ أسباب الاختلاف في تعين المكي والمدني:

من أهم الأسباب ما يلي:

- أنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في هذا الأمر.
- الاختلاف بين العلماء في تحديد مصطلح المكي والمدني.
- عدم التمييز بين ما هو صريح في السببية وما هو غير صريح فيها.
- الاعتماد على قطعية بعض الضوابط وخصائص المكي والمدني.
- اعتماد الروايات الضعيفة التي لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج.

❖ طريق معرفة المكي والمدني:

يعرف المكي والمدني بأحد طريقين:

• الطريق الأول: النقلي السمعي:

وهي الآيات والسور التي عرفنا أنها مكية أو مدنية بطريق الرواية عن أحد الصحابة الذين عاشوا فترة

الوحى وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التابعين الذين سمعوا ذلك من الصحابة.

أما النبي ﷺ فلم يرد عنه بيان للسور المكية والسور المدنية؛ لأن هذا مما يشاهده ويحضره الصحابة ﷺ

فكيف يخبرهم عن شيء يعلمونه! فالمكي والمدني يعرف بغير نص من الرسول ﷺ.

ولهذا قال الباقياني: (إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في

ذلك قول؛ لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم

معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص من الرسول ﷺ).

أمثلة:

من أمثلة ما عرف أنه مكى أو مدنى عن طريق الصحابة رض:

— قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأనفال: 64]، فقد أخرج البزار عن ابن عباس رض: أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رض، ومن المعلوم أن عمر قد أسلم في مكة فالآية إدّاً مكية، والsurة مدنية.

روى مسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ألم قتل مؤمناً متعمداً من توبه؟ قال: لا. قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: 86] إلى آخر الآية. قال: هذه آية مكية نسختها آية مدنية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: 93].

الطريق الثاني: القياس الاجتهادي:

نظر العلماء رحمة الله تعالى في الآيات وال سور التي عرفوا أنها مكية أو مدنية بالطريق الأول "السماعي النقلي" واستنبتوا خصائص وضوابط للسور المكية، وخصائص وضوابط للسور المدنية، ثم نظروا في السور التي لم يرد نصوص في بيان مكان نزولها، فإن وجدوا فيها خصائص السور المكية قالوا إنها مكية، وإن وجدوا فيها خصائص السورة المدنية قالوا: إنها مدنية، وهذا يكون بالاجتهاد والقياس، فسمي هذا الطريق بالقياسي الاجتهادي.

وقد نقل الزركشي في كتابه "البرهان" عن الجعري قوله: (معرفة المكي والمدني طريقان: سمعي، وقياسي، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحد هما، والقياسي كل سورة فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فقط، أو ﴿كَلَّا﴾، أو أولاها حرف تهجّ -سوى الزهراوين والرعد-، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية، وكل سورة فيها فريضة أوحد فھي مدنية).

❖ خصائص السور الملكية والمدنية:

١_ الخصائص التي تتميز بها سور الملكية:

أ_ الخصائص الأسلوبية:

١- قصر الآيات والسور، وإيجازها وقوتها تعبيرها وتجانسها الصوتي.

- 2- كثرة أسلوب التأكيد ووسائل التقرير ترسينا للمعاني، كالإكثار من القسم وضرب الأمثال والتشبيه.
- 3- كثرة الفواصل.

بـ الخصائص الموضوعية:

- 1- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار.
- 2- الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة، والتشريعات العامة.
- 3- مجادلة المشركين وتسفيه أحالمهم، وتشنيع القبيح من عاداتهم بحجج دامغة وبراهين مقنعة.
- 4- إنذار المشركين والكافر بما قص عليهم من أنباء الرسل مع أقوامهم بانتصار أهل الإيمان وإبادة أهل الكفر.

2_ الخصائص التي تتميز بها السور المدنية:

أـ الخصائص الأسلوبية:

- 1- سلوك الإطناب والتطويل في آياته وسوره.
- 2- سهولة ألفاظها وخلوها من الغريب اللغوي في الغالب.
- 3- الأسلوب الهدئ واللحجة الباهرة عند مناقشة أهل الكتاب، والأسلوب التهكمي عند مجادلة أهل الكتاب وفضح نواياهم الخبيثة.

بـ الخصائص الموضوعية:

- 1- التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية.
- 2- بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد، وحكمه تشريعه، وذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والمعاهدات والصلح والغنائم والفيء والأسرى.
- 3- دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان ضلالهم فيها.
- 4- بيان ضلال المنافقين وإظهار ما تكنه نفوسهم من الحقد والعداوة على الإسلام والمسلمين.

❖ أنواع المكي والمدني:

قال أبو القاسم الحسن بن محمد النيسابوري في كتاب "التنبيه على فضل علوم القرآن": "من أشرف علوم القرآن:

- 1 علم نزوله
- 2 وجهاته
- 3 وترتيب ما نزل بمكة والمدينة
- 4 وما نزل بمكة وحكمه مدني
- 5 وما نزل بالمدينة وحكمه مكي
- 6 وما نزل بمكة في أهل المدينة
- 7 وما نزل بالمدينة في أهل مكة
- 8 وما يشبه نزول المكي في المدنى
- 9 وما يشبه نزول المدنى في المكي
- 10 وما نزل بالجحفة
- 11 وما نزل ببيت المقدس
- 12 وما نزل بالطائف
- 13 وما نزل بالحدبية
- 14 وما نزل ليلا
- 15 وما نزل نهارا
- 16 وما نزل مشيعا⁸
- 17 وما نزل مفردا
- 18 والآيات المدنيات في السور المكية
- 19 والآيات المكيات في السور المدنية
- 20 وما حمل من مكة إلى المدينة
- 21 وما حمل من المدينة إلى مكة
- 22 وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة

⁸ أي تشييع الملائكة، مثل سورة الأنعام.

-23 وما نزل مجملًا

-24 وما نزل مفسراً

-25 وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي.

فهذه خمسة وعشرون وجهاً، من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى" قال السيوطي: وقد أشبع الكلام على هذه الأوجه، فمنها من أفردته بنوعه، ومنها ما تكلمت عليه في ضمن بعض الأنواع.

واجب: اذكر مثلاً واحداً عن كل نوع من الأنواع السابقة (25 نوعاً).

❖ فوائد معرفة المكي والمدني:

1- تمييز الناسخ من المنسوخ: فإذا وردت آياتان في موضوع واحد، وكان الحكم في إحداهما مخالفًا له في الأخرى، وكانت إحداهما مكية والأخرى مدنية، فإنّ المدنى عندئذ يكون ناسخاً للمكي، لتأخير نزول المدنى عن المكي.⁹

2- الاستعانة به في تفسير القرآن: فإنّ معرفة موقع النزول تساعد على فهم الآية وتفسيرها تفسيرًا صحيحًا، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

3- معرفة الصحيح من الضعيف في التفسير: (والترجيح بين الأقوال)
فقد يقع في بعض الأقوال ما يشير إلى تحديد المراد بالقرآن المكي بحديث مدنى، ويكون هذا الحديث المدنى صحيحاً من جهة التفسير، لكنه لا يكون صحيحاً من جهة كونه هو المراد الأول الذي نزلت من أجله الآيات.

ومن أمثلة ذلك: قال ابن عطية رحمه الله . في تفسيره "الحرر الوجيز": في تفسير قوله الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْدَنَ عَيْنِيْكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَرْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتَسْهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

⁹ النسخ في اللغة الإزالة والنقل والتغيير، وفي الشرع: هو رفع حكم شرعى بدليل شرعى متاخر عنه. فلما يكون بين الآية المكية والآية المدنية تعارض، فلا شك أن الآية المدنية متاخرة زماناً عن الآية المكية، فلهذا يتوجه بالقول إلى أن الآية المدنية ناسخة للآية المكية التي أصبحت مرفوعة الحكم.

[طه: 131]، قال بعض الناس¹⁰: سبب هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيء، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيرا فأبى اليهود إلا برهن، فبلغ الرسول بذلك إلى النبي ﷺ فقال: "والله أني لأمين في السماء وأمين في الأرض"، فرنه درعه، فنزلت الآية في ذلك. قال القاضي أبو محمد - ابن عطية -: "وهذا معرض أن يكون سبباً لأنّ السورة مكية، والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر الرسول ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر إنّ الآية متناسقة مع ما قبلها وذلك أن الله تعالى وبحثهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه بالاحتفار لشأنهم والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا إذ ذاك منحصر عندهم صائر به إلى خزي".

فالقصة في المدينة، والآية مكية، فترجح عند المفسر القول الصحيح في معنى الآية بمعرفته للمكي والمدني.

4- تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى: فإنّ لكل مقام مقلاً، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصوصاً أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجاً لطائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسية المخاطب، ويكتلك عليه لبّه ومشاعره، ويعالج في دخالته بالحكمة البالغة ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئاتهم، ويندو هذا واضحاً جلياً بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب.¹¹

5- الوقوف على السيرة من خلال الآيات القرآنية: فإنّ تتابع الوحي على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأخذتها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما روي عن أهل السير موافقاً له، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات.

6- يعين على معرفة تاريخ التشريع: والوقوف على سنة الله الحكيمية في تشريعيه، وهو التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع، والإجمال على التفصيل، وقد أثبتت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت

¹⁰ أي بعض المفسرين.

على الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان والانتشار، ويترتب على هذا الإيمان بأن هذا التدرج لا يكون إلا من علیم خبير، عزيز حكيم، رحمن رحيم.¹²

7- الثقة بالقرآن الكريم وبحفظه: وبوصوله إلينا سالماً من أدنى تحريف؛ نظراً لاهتمام المسلمين وعنايتهم به كل هذا الاهتمام حتى عرّفوا وتناقلوا ما نزل منه قبل الهجرة، وما نزل بالحضر أو السفر، بالليل أو النهار، بالصيف أو الشتاء، مما لم يحظ بمثله كتاب آخر على الإطلاق غير القرآن الكريم.

من مظاهر عنابة المسلمين بالقرآن الكريم:

أ- بيان الحضري والسفرى.

أمثلة الحضري كثيرة، وجل القرآن نزل في الحضر، وأما السفرى فله أمثلة منها:

- **﴿وَأَتُؤْمِنُوا بِالْحُجَّ وَالْعُمْرَةِ لِلَّهِ﴾** [البقرة: 196] ، ودليله ما أخرجه ابن أبي حاتم عن صفوان بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ مضمّخ بالزعفران عليه جبة، فقال: كيف تأمرني في عمرتي، فنزلت، فقال: "أين السائل عن العمرة ألق عنك ثيابك ثم اغتسل" ... الحديث. وكذلك قوله في هذه الآية **﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذْى مِنْ رَأْسِهِ﴾**، نزلت بالحدبية، كما أخرجه أحمد عن كعب بن عجرة الذي نزلت فيه، والواحدى عن ابن عباس.

- قوله تعالى: **﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقْمَتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقْمُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾** [النساء: 102] نزلت بعسفان بين الظهر والعصر، كما أخرجه أحمد عن أبي عياش الزرقى.

- قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾** [المائدة: 3]؛ ففي الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع.

- قوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾** [التوبه: 42] وما بعدها، نزلت في تبوك، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

- سورة الفتح؛ ففي صحيح البخاري في قصة عمر مع رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لها أحب إلى ما طلعت عليه الشمس"، ثمقرأ: **﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾**، وكان ذلك في

¹² كما حصل التدرج في تحريم الخمر، فلو حرم مباشرة لما استجابت له النفوس.

منصرفه من الحديبية، وأخرج الحكم في المستدرك عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أواها إلى آخرها.

ب-

بيان النهاري والليلي:

أمثلة النهاري كثيرة جدا، ولهذا قال ابن حبيب: "نزل أكثر القرآن نهاراً"، وأما الليلي فمن أمثلته:
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّأُولَئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 109]، فقد أخرج ابن حبان في صحيحه، وابن المنذر، وابن مردويه، وابن أبي الدنيا في كتاب "التفكير" عن عائشة أن بلا لا أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي قال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: "وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ الآية ثم قال: ويل من قرأها ولم يتفكر".

- آية الثلاثة الذين خلفوا: وهي ﴿وَعَلَى الْثَّالِثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ [التوبه: 118]، ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك: "أنزل الله توبتنا حين بقي الثالث الأخير من الليل" والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الريبع.

- سورة مريم؛ روى الطبرى عن أبي مريم الغسالى، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: ولدت لي الليلة جارية، فقال: "والليلة أنزلت علي سورة مريم، سمّها مريم".

- سورة الفتح؛ ففي الحديث الصحيح: أن ذلك كان ليلاً.

- آية التيم التي في المائدة: ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها وحضرت الصبح فالتمس الماء، فلم يوجد؛ فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6]

ج- بيان الصيفي والشتائي:

ما لا شك فيه أن القرآن نزلت منه أي كثيرة في الصيف وهي كثيرة في الشتاء وقد أحصى بعض العلماء بعضًا من ذلك، فمن أمثلة الصيفي:

- قال الواحدى: أنزل الله في كلالة آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول النساء: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ الآية [النساء: 12]، والأخرى في الصيف وهي التي في آخرها ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيْكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176]، وفي صحيح مسلم عن عمر قال: ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما

راجعته في الكلالة، وما أغلط في شيء ما أغلط لي فيه، حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: "يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء" وقد كان ذلك في سفر حجة الوداع فيعد من الصيفي ما نزل فيها كأول المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3].

- ومن الصيفي الآيات النازلة في غزوة تبوك فقد كانت في شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة. وذلك مثل: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُونَ﴾ [التوبه:42].

ومثل آية: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبه:81] والآية ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتَنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبه:49]

ومن أمثلة الشتاوي:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْلَكِ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور:11-26] ففي الصحيح عن عائشة أنها نزلت في يوم شتاء.

- الآيات التي نزلت في غزوة الخندق في سورة الأحزاب، فقد كانت في شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن وما ذكر في المعاذى، ففي حديث حديفة تفرق الناس عن الرسول ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثنى عشر رجلا فأتاني رسول الله ﷺ فقال: "قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب"، قلت: يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء من البرد... الحديث، وفيه أنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيَاحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرُوهَا﴾ الآيات [الأحزاب:9] وما بعدها من الآيات. أخرجه البيهقي في الدلائل.

المحاضرة الخامسة: علم أسباب النزول القرآني

إنّ سبب نزول آيات القرآن الكريم عموماً هو هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم، لكن هناك آيات تزيد على هذا السبب العام بسبب خاص مرتبط بها وحدها دون غيرها، وهذا السبب الخاص هو الذي يبحثه العلماء تحت هذا الموضوع.

وعليه فإنّ آيات القرآن الكريم تنقسم من حيث سبب النزول وعدمه إلى قسمين:

- **القسم الأول:** قسم نزل من الله ابتداء، فهو غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو مرتبط بالسبب العام وهو هداية الناس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم، كسورة الفاتحة، والأعما...

- **القسم الثاني:** قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة¹³ ويسميه العلماء سبب نزول الآية، وآيات هذا القسم هي الأقل، ولأهميةتها أفردها العلماء بالدراسة والبيان.

❖ عناية العلماء بأسباب النزول:

اعتنى العلماء -رحمهم الله تعالى- عناية فائقة بدراسة أسباب النزول، وتظهر عنایتهم في ثلاثة صور:

الأولى: أنهم أفردوا أسباب النزول بباب مستقل من أبواب علوم القرآن الكريم.

الثانية: أن المفسرين يوردون أول ما يوردون في تفسير الآية سبب نزولها -إن كان لها سبب نزول-، ويعتلون بذلك، ويستندون إليه في تفسير الآية.

الثالثة: أن العلماء أفردوا أسباب النزول بمؤلفات مستقلة وهي مؤلفات كثيرة، فأول من أفرده بالتأليف، علي بن المديني (ت 234هـ) ثم جاء بعده كل من:

- عبد الرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسي (ت 402هـ): "القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن".

¹³ من هذه الآيات ما نزلت بسبب حادثة وقعت فينزل القرآن ليبياها أو قضية تحتاج إلى تجليها أو حكم شرعي يبينه الله عز وجل لعباده أو رفع مشقة.

- أبو حسن علي بن أحمد الواحدي (ت 468هـ): "أسباب النزول".
- ابن الجوزي (ت 597هـ): "أسباب نزول القرآن".
- ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ): "العجباب في بيان الأسباب".
- السيوطي (ت 911هـ): "باب النقول في أسباب النزول" ويسمى أيضًا "باب المنقول".

ومن المؤلفات الحديثة:

- "جامع النقول في أسباب النزول" وشرح آياتها لابن خليفة عليوي.
- "الصحيح المسند من أسباب النزول" لمقبل من هادي الوادعي.
- "المحرر في أسباب النزول" لعصام الحميدان.

❖ تعريف أسباب النزول:

عرفه الشيخ مناع القطان بقوله: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

وعرفه فهد الرومي بقوله: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة تقع حين نزول القرآن الكريم فتنزل آية أو آيات من القرآن تبين الحكم فيها، أو كسؤال يوجه إلى الرسول ﷺ فتنزل آية أو آيات من القرآن الكريم وفيها الإجابة عليه".

ولهذا يمكن أن نعرف أسباب النزول بأنها كل قول أو فعل أو سؤال من عاصروا التنزيل فنزل بشأنه قرآن.

- مثال القول: ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال: أبو جهل: هل يعفّر محمد ووجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: وللات والغرى، لئن رأيتُه يفعّل ذلك لأطأن على رقبته - أو لا يعفّر ووجهه في التراب - قال: فأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطا على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتفقى بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟! فقال: إن بيبي وبينه لخندقا من نار وهو لا واجبحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لا حتىطفته الملائكة عضوا عضوا، قال: فأنزل الله عز وجل: (كلا إن الإنسان ليطغى * لأن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجوع * أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على اهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتوى)، يعني أبا جهل، (أم يعلم بأن الله يرى

* كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٌ كَادِبَةٌ خَاطِئَةٌ * فَلْيَدْعُ نَادِيَةٌ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ [العلق: 6-19].

- ومثال الفعل: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزرون، ويقولون: نحن المطهرون، فإذا قدموه مكة سألا الناس، فأنزل الله تعالى: (وَتَرَوْدُوا فِيْنَ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَى) [البقرة: 197].

- ومثال السؤال: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أنه قال: أن اليهود كانوا إذا حاضرت المرأة فيهم لم يواكلوها، ولم يجتمعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ فُلْنَ هُوَ أَذَى فَاعْتَنِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ) [البقرة: 222] إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اصنعوا كل شيء إلا النكاح، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا حالفنا فيه.

❖ شرح التعريف: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال".

□ "وقت وقوعه": لأنه لا بد أن يكون نزول الآيات وقت وقوع الحادثة، فإن كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الواقع الماضية والأمم السابقة كالأيات التي تتحدث عن خلق آدم طَلِيلًا، وقصته مع إبليس، وقصة إبني آدم، وقصص الأنبياء السابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام.

ولا يلزم أن يكون نزول الآيات بعد الحادثة أو السؤال مباشرة، بل يصح أن يتاخر زمنا يسيرا فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُلْنَ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَإِذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 23-24]، قد نزل بعد خمس عشرة ليلة من الحادثة، وكذا الآيات المتعلقة بحادثة الإفك إنما نزلت بعد نحو شهر منها.

□ والحادثة: التي ينزل القرآن لأجلها:

أ- قد تكون من الرسول ﷺ، كما حدث في سبب نزول سورة عبس، وقصة ابن أم مكتوم الأعمى، فقد أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعنده رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأسا؟ فيقول: لا، فنزلت: (عَبَّسَ وَتَوَلََ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَرَكِي * أَوْ يَذَكِّرُ فَتَنَفَّعُهُ الدِّكْرُى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرَكِي * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) [عبس: 1-10]، فكان الرسول ﷺ إذا رأى ابن أم مكتوم بعد ذلك يقول: "مرحباً بن عاتبني فيه ربى".¹⁴

ب- وقد تكون الحادثة من جماعة من الصحابة ﷺ، كأولئك الصحابة الذين كانوا يصادفون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصدقة والخليفة والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ حَبَالًا وَدُوَّا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَ لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]. قال مجاهد: "نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصادفون المنافقين، فنهىهم الله تعالى عن ذلك".

ت- وقد تكون الحادثة من المشركين أو من اليهود أو من المنافقين والأمثلة على ذلك كثيرة.

□ و"السؤال" قد يكون عن ماض: كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83].

أو عن حاضر كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: 189]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85].

أو عن مستقبل كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنِفِّقُونَ﴾ [البقرة: 215]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات: 42].

❖ طريق معرفة سبب النزول:

1_ النقل الصحيح عن الصحابة:

¹⁴ أسباب النزول للواحدي

ذكر العلماء أنّ المرجع في معرفة أسباب النزول يتحتم أن يكون عن طريق النقل الصحيح عن صحابة رسول الله ﷺ لأنهم هم الذين عاصروا الوحي، وعايشوا التنزيل، ووقفوا على الأحداث والواقع التي أحاطت بما نزل من آيات القرآن الكريم على سبب، كما أنهم سمعوا من الرسول الكريم ﷺ ما لم يسمعه غيرهم. ولا يمكن الاجتهاد في معرفة ذلك، بل لا يجوز لأنه من القول في القرآن بغير علم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36] وقال ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فليتبواً مقعده من النار" ¹⁵.

روي عن سعيد بن جبير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الحديث إلا ما علمتم، فإن من كذب على متعمداً فليتبواً مقعده من النار، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبواً مقعده من النار".

وروى الواحدي عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال: "اتق الله، وقل سداداً، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن".

وقال الواحدي: "ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع من شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبخثوا عن علمها، وجدوا في طلبها".

إذن: فالمعتمد عليه في أسباب النزول جانب الرواية، ولا بد أن تكون الرواية صحيحة، دالة بصيغها على أنّ ذلك سبب في نزول الآية كما قرر العلماء في ذلك.

❖ الصيغة التي يرد بها سبب النزول:

الصيغة الأولى: التي يقول فيها الصحابي مثلاً: سبب نزول هذه الآية كذا، فهذه العبارة صيغة صريحة في السببية، وكذلك إذا أتى بفاء التعقيب، وقرنها بعبارة الإنزال بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول: حدث كذا وكذا فأنزل الله تعالى آية كذا، أو فنزلت آية كذا، أو يقول: سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت آية كذا، وهذه الصيغة كذلك صريحة في السببية؛ لأنّ فائتها أوضحت فيها أن نزول الآية أو الآيات ترتب على وقوع تلك الحادثة، أو توجيهه لهذا السؤال، ومعنى ذلك أنّ سبب النزول هو هذه الحادثة أو ذلك السؤال. ولها حكم الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ.

¹⁵ رواه الترمذى. وقال هذا حديث حسن.

مثال: ما ثبت في الصحيح عن مسروق، قال: سمعت خباب بن الأرت يقول: جئت العاصي بن وائل السَّهْمِيَّ أتقاضاه حَقًا لي عنده، فقال: لا أُعطيك حَقًّا تَكُفُّر بِمُحَمَّدٍ فقلت: لا، حَقًّا تموت ثم تُبعث قال: وإنِّي لمِّيت ثم مبعوث فقلت: نعم فقال: إنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيهِ فنزلت: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَا وَتَيَّنَ مَالًا وَوَلَدًا * أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 77-78].

■ الصيغة الثانية: هي التي تكون العبارة فيها محتملة، فتصلح لأن يراد بها سبب النزول، كما تصلح أن يراد بها التفسير، كأن يقول الصحابي رضي الله عنه: (نزلت هذه الآية في كذا)، لكن لا ينبغي أن يفهم احتمال هذه العبارة للأمرتين معاً دفعة واحدة في الموضع الواحد، بل المراد أنها إما أن يراد بها سبب النزول، أو يراد بها التفسير وما تشتمل عليه الآية، وعندئذ يتوقف فهم المراد منها على دليل أو قرينة توضح هذا المراد. وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في كذا" فإن الرواذي بهذه الصيغة لا يقطع بالسبب.

مثال: ما روي عن عبد الله بن الزبير "أنَّ رجلاً من الأنصار خاصمَ الزبيراً إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرَحَ الْمَاءُ يَمْرُرُ فَأَبِي عَلَيْهِ فَاخْتَصَمُوا عَنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْقِ يَا زُبِيرُ ثُمَّ أَرْسَلَ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ فَعَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَّ كَانَ ابْنَ عَمِّكَ فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ثُمَّ قَالَ: يَا زُبِيرُ اسْقِ ثُمَّ احْسِنِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ فَقَالَ الزُّبِيرُ: إِنِّي أَحْسَبُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَّلَتْ فِي ذَلِكَ، وَفِي رَوْاْيَةِ: مَا أَحْسَبَ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

2_ النقل الصحيح عن بعض التابعين:

إذا ورد سبب النزول عن التابعي فيشترط لقبوله أربعة شروط، وهي:

- 1- أن تكون عبارته صريحة في السببية: بأن يقول "سبب نزول هذه الآية كذا"، أو أن يأتي بفاء تعقيبية داخلة على مادة النزول بعد ذكر حادثة أو سؤال، كأن يقول "حدث كذا وكذا" أو "سئل رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن كذا فأنزل الله تعالى هذه الآية أو فنزلت هذه الآية".

2- أن يكون الإسناد صحيحاً.

3- أن يكون التابعي من أئمة التفسير الذين أخذوه عن الصحابة.

4- أن يعتضد برواية تابعي آخر تتوافر فيه نفس الشروط وإذا اكتملت هذه الشروط في رواية تابعي قبلت وصار لها حكم الحديث المرسل.

وبهذا ندرك الحقيقة الشديدة التي اتخذها العلماء -رحمهم الله تعالى- لصيانته تفسير القرآن من الدخيل والتحريف والتبدل.

❖ تعدد الروايات في سبب النزول وعارضها:

يرجع تعارض الروايات في سبب النزول إلى تعددتها، والتعدد نوعان:

الأول: تعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة.

الثاني: تعدد الآيات في سبب نزول واحد.

1. تعدد الروايات في سبب النزول¹⁶ :

قد تتعدد الروايات في سبب نزول آية واحدة وفي مثل هذه الحالة يكون موقف المفسر منها على النحو الآتي:

أ-إذا لم تكن الصيغ الواردة صريحة: مثل "نزلت هذه الآية في كذا" أو "أحسبها نزلت في كذا" فلا منافاة بينها، إذ المراد التفسير، وبيان أن ذلك داخل في الآية ومستفاد منها، وليس المراد ذكر سبب النزول، إلا إن قامت قرينة بأن المراد بها السبيبة.

ب-إذا كانت إحدى الصيغ غير صريحة كقوله "نزلت في كذا" وصرح آخر بذكر سبب مخالف:
فالمعتمد ما هو نص في السبيبة، وتحمّل الأخرى على دخولها في أحکام الآية.

ومثال ذلك: ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ﴾ [آل عمران: 13] عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ فقال ابن عمر: أتدرى فيم أنزلت هذه الآية قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن.

¹⁶ يرجع لكتاب مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، وكتاب المدخل للدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة.

فهذه الصيغة من ابن عمر غير صريحة في السببية وقد جاء التصريح بذلك سبب يخالفه، فعن جابر^١ قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها جاء الولد أحول، فنزلت: **﴿نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾**.

فجابر هو المعتمد لأن كلامه نقل صريح، وهو نص في السبب، أما كلام ابن عمر فليس بنص فيحمل على أنه استنباط وتفسير.

ج- إذا تعددت الروايات وكان جميعها نصاً في السببية وكان إسناد أحدها صحيحًا دون غيره:
فالمعتمد الرواية الصحيحة.

ومثاله: ما أخرجه الشیخان وغيرهما عن جندب البجلي قال: اشتكي النبي ﷺ فلم يقم ليتین او ثلاثة، فأنته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم يقربك ليتین او ثلاثة، فأنزل الله: **﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾** [الضحى: 1-3]

وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمها - وكانت خادمة الرسول ﷺ (أن جروًا^{١7} دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير، فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله؟ جبريل لا يأتيني! فقلت في نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فقال: يا خولة دثريني، فأنزل الله: **﴿وَالضُّحَىٰ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿فَتَرَضَىٰ﴾** قال ابن حجر في شرح البخاري: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب في نزول الآية غريب، وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيحين.

د- إذا تساوت الروايات في الصحة ووجد وجه من وجوه الترجيح كحضور القصة مثلاً^{١8} أو كون إحداها أصح: قدمت الرواية الراجحة.

ومثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود^{رض} قال كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لو سألتهموه، فقالوا: حدثنا عن الروح، فقام ساعة ورفع رأسه،

¹⁷ الجرو: صغير الكلب.

¹⁸ أي أن راوي القصة وراوي الحديث حضر هذه القصة.

فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 85).

وقد أخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس رض قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: أسلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. فهذه الرواية تقتضى أنها أنزلت بمكة حيث كانت قريش، والرواية الأولى تقتضى أنها أنزلت بالمدينة، وترجح الرواية الأولى لحضور ابن مسعود القصة، ثم لما عليه الأمة من تلقى صحيح البخاري بالقبول وترجيحه على ما صح في غيره.

● وقد اعتبر الزركشى هذا المثال من باب تعدد النزول وتكرره، فتكون هذه الآية قد نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة واستند في ذلك إلى أن سورة "سبحان" مكية بالاتفاق.

مع أن كون السورة مكية لا ينفي أن تكون آية منها أو أكثر مدينة، وما أخرجه البخاري عن ابن مسعود يدل على أن هذه الآية: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مدنية، ووجه ترجيح رواية ابن مسعود على رواية الترمذى عن ابن عباس أولى من حمل الآية على تعدد النزول وتكرره. ولو صح أن الآية مكية وقد نزلت جواباً عن السؤال فإن تكرار السؤال نفسه بالمدينة لا يقتضي نزول الوحي بالجواب نفسه مرة أخرى بل يقتضي أن يحيى الرسول صل بالجواب الذي نزل عليه من قبل. هـ - إذا تساوت الروايات في الترجيح: جمع بينهما إن أمكن، فتكون الآية قد نزلت بعد السبيبين أو الأسباب لتقارب الزمن بينهما.

ومثال ذلك: آيات اللعان ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: 9-6] فقد أخرج البخاري والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس رض: أنها نزلت في هلال ابن أمية، قذف امرأته عند النبي صل بشريك بن سحماء. وأخرج البخاري ومسلم عن سهل بن سعد: أن عُمرًا أتى عاصم بن عدوي - وكان سيد بنى عجلان - فقال: كيف تقولون في رجلى وجد مع امرأته رجلاً؟ أيقنته فتقتلونه، أم كيف يصفع؟ سألي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل، فسألة عُمر، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المسائل وعابها، قال عُمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عن ذلك، فجاء عُمر، فقال:

يا رسول الله، رجلٌ وجدَ مع امرأته رجلاً؛ أتقتلُه فتقتلُونه، أمْ كيفَ يصْنَعُ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قدْ أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فِيلَكَ وَفِي صَاحِبِتِكَ، فَأَمْرُهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمُلَاعَةِ بِمَا سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَلَا عَنَّهَا، ثُمَّ قَالَ: يا رسولَ اللهِ، إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا، فَكَانَتْ سُنَّةُ لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي الْمَتَلَاعِنَيْنِ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْظُرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمُ، أَدْعُجُ الْعَيْنَيْنِ، عَظِيمُ الْأَلْيَتَيْنِ، حَدَّلَجُ السَّاقَيْنِ؛ فَلَا أَحْسِبُ عُوْيِّنَ إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَحْيَمُ كَانَهُ وَحْرَةُ، فَلَا أَحْسِبُ عُوْيِّنَ إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا. فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتْ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَصْدِيقِ عُوْيِّنَ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ.

فجمع بينهما بوقوع حادثة هلال أو لا وصادف مجيء عمر كذلك فنزلت في شأنهما معا بعد حادثيهمما.
ولهذا قال ابن حجر: "لا مانع من تعدد الأسباب".

و-إِذَا لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعَ لِتَبَاعُدِ الزَّمْنِ: فَإِنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى تَعْدِيدِ النَّزْوَلِ وَتَكْرَرِهِ.

ومثاله: ما أخرجه الشیخان عن المسیب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمیة فقال: "أی عِمٍ قل: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلْمَةُ أَحَاجِّ لَكَ بِهَا عَنْدَ اللَّهِ"، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل يكلمانه حتى قال: هو على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: "لَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَكُمْ مَا لَمْ أُنْهِ عَنْهُ"، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبه: 113].

وآخر الترمذی عن علي رضی اللہ عنہ قال "سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهم مشرکان فقلت: تستغفر لأبويك وهما مشرکان؟ فقال: استغفر إبراهیم لأبيه وهو مشرک، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت".

وآخر الحاکم وغيره عن ابن مسعود رضی اللہ عنہ قال: خرج النبي ﷺ يوماً إلى المقابر فجلس إلى قبر منها، فناجاه طويلا ثم بكى، فقال: "إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي، وإن استأذنت ربى في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل على: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾".

فجمع بين هذه الروایات بتعدد النزول وتكرره.

2. تعدد النزول مع وحدة السبب:

قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ولا شيء في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى.

ومثال ذلك: ما أخرجه سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذمي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء؟ فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ إلى آخر الآية [آل عمران: 195].

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ما لنا لا ذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعنني منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر: "يا أيها الناس" قالت: وأنا أسرح رأسي، فلقيت شعرى، ثم دنوت من الباب، فجعلت سمعي عند الجريد، فسمعته يقول: "إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾" [الأحزاب: 35].

وأخرج الحاكم عن أم سلمة أيضاً أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، وأنزل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

تعدد ما نزل في شخص واحد:

قد يحدث لشخص واحد من الصحابة أكثر من واقعة ويتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها فيتعدد ما نزل بشأنه بتنوع الواقع.

ومثاله: ما رواه البخاري في كتاب "الأدب المفرد" في بر الوالدين، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: نزلت في أربع آيات من كتاب الله: كانت أمي حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى أفارق محمدًا فأنزل الله: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]. والثانية: أني كنت أخذت سيفاً فأعجبني فقلت: يا رسول الله هب لي هذا السيف فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأనفال: 1]

والثالثة: أين كنت مريضت فأتاني رسول الله فقلت يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي فأوصي بالنصف؟
فقال: لا، فقلت: الثالث. فسكت، فكان الثالث يعد جائزًا.

الرابعة: إني شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحى جمل فأتيت الرسول فأنزل الله تحريم الخمر.

ومن هذا القبيل موافقات عمر فقد نزل الوحي موافقاً لرأيه في عدة آيات.

— كما في قضية أسارى بدر ¹⁹ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 67].

— قوله ﷺ: "يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلىً" ، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّى﴾ [البقرة: 125].

— وأيضاً قوله: "يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتكن أن يتحجن" ، فنزلت:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا إِرْرَاجَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفُنَّ فَلَا يُؤْدِنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59].

¹⁹ لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأنهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله، كذبوك وأخرجوك، قدّمهم فاضرب عناقهم! وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثيرة الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم ناراً. قال: فقال له العباس: قطعت رحمك! قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجدهم، ثم دخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس: يأخذ بقول عمر. وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إِنَّ اللَّهَ لِيَلِينَ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّىٰ تَكُونَ أَلَيْنَ مِنَ الْبَنِينَ، وَإِنَّ اللَّهَ لِيُشَدِّدَ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّىٰ تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحَجَارَةِ"! وإن مثل ذلك يا أبو بكر مثل إبراهيم، قال: ﴿فَمَنْ تَعْيَنَ فِي أَنَّهُ مِتْيٌ وَمَنْ عَصَى إِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، ومثل ذلك يا أبو بكر مثل عيسى قال: ﴿إِنْ تَعْدِهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، الآية [المائدة: 118]. ومثل ذلك يا عمر مثل نوح، قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ [نوح: 26]، ومثل ذلك كمثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنتم اليوم عالة، فلا ينفلت أحدٌ منهم إلا بفداء أو ضرب عنق. قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع على الحجارة من السماء، مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سهيل بن بيضاء. قال: فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾، إلى آخر الثالث الآيات.

❖ أثر معرفة أسباب النزول في التفسير:

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة من أهمها:

1- معرفة حكمة التشريع. وأنه قام على رعاية مصلحة الأمة ودفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرحمة بها، وذلك كحادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنه حين جاءت إلى الرسول صلوات الله عليه تشتكى زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونترث له بطني، حتى إذاكبر سني، وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إنيأشكو إليك. فنزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: 1]. وهو أوس بن الصامت²⁰ فشرع الله تعالى الكفارة؛ رحمة بها وبأمثالها؛ وصيانة للأسرة في المجتمع الإسلامي من التفكك وحماية للأبناء من التشرد.

2_ معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد بالأية وتفسيرها التفسير الصحيح ودفع اللبس والإشكال عن معناها.

قال الوالحي عن أسباب النزول "هي أوفي ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها؛ لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها".²¹
وقال أبو الفتح القشيري: "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز"²²
وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب، وهذا كان أصح قولي للفقهاء: أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هييجها وآثارها".²³ ..

ومن الأمثلة على ذلك:

1- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوْا فَثُمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 115].

²⁰ لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ص 206.

²¹ أسباب النزول، الوالحي، ص 4.

²² البرهان، التركشي، ج 1، ص 22.

²³ مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص 47.

فظاهر هذه الآية يدل على أن للإنسان أن يصلى إلى آية جهة شاء، ولا يجب عليه استقبال القبلة لا في سفر ولا حضر ولا في فرض ولا في نافلة، وهذا مخالف لما هو معلوم من الأدلة الأخرى في الكتاب والسنة بوجوب التوجه إلى شطر المسجد الحرام. ويزول الإشكال إذا عرف سبب نزول هذه الآية:

وهو كما رواه جابر بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا قد عرفنا: القبلة هنا قبل الشمال. فصلوا وخطوا خطوطا، وقال بعضنا: القبلة هنا قبل الجنوب فصلوا وخطوا خطوطا، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك فسكت فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُوا فَشَّمْ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115].

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُوا فَشَّمْ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وبهذا ندرك أن هذه الآية خاصة بمن صلى وهو لا يعرف القبلة ثم يتبعن له خطوه فإنه لا يعيد الصلاة، وكذا في صلاة النافلة على الراحلة في السفر لا يلزم التوجه إلى القبلة²⁴. وبمعرفة سبب النزول زال الإشكال.

2- ومثله آية: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْمٌ﴾ [البقرة: 158]، فإن ظاهر لفظ الآية لا يقتضي أن السعي فرض؛ لأن رفع الجناح يفيد الإباحة لا الوجوب، وذهب بعضهم إلى هذا تمسكاً بالظاهر، وقد ردت عائشة على عروة بن الزبير في فهمه ذلك بما ورد في سبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثروا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية، حيث كان على الصفا "إساف" وعلى المروءة "نائلة"، وهما صنمان، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوهما: "فعن عائشة أن عروة قال لها: أرأيت قول الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطْوَفَ بِهِمَا﴾؟" مما أرى على أحد جناحاً إلا يطوف بهما؟، فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أخي، إنما لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه إلا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت، إن الأنصار قبل أن يسلمو كانوا يهلوون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروءة في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾

²⁴ أما من كان في البلدان فإنه لا يعذر بجهل القبلة.

الآية قالت عائشة: ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما، فهو ركن من أركان العمرة والحج.

3- ومن فوائد معرفة سبب النزول: تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتبسيط الوحي في ذهن كل من يسمع الآية، إذا عرف سبب نزولها؛ لأن ربط الأسباب بالمسيبات والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذهن وسهولة استذكارها عند تذكر بعضها.²⁵

4- معرفة من نزلت فيه الآية بعينه حتى لا يبرأ المتهم أو يتهم البريء وحتى لا يزعم أحد أن المراد بالذم في تلك الآية فلان من الصحابة وهو بريء، أو ينسب إلى آخر صفات مدح في آية والمراد بها غيره.

5- معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصوص لها.

ويبيان ذلك: أن اللفظ قد يكون عاماً ويقوم دليل على تخصيصه فلا يجوز إخراج السبب من حكم الآية بالاجتهاد والإجماع؛ لأن دخول السبب قطعي، وإخراجه بدليل التخصيص اجتهادي، والاجتهاد ظني، ولا يجوز إخراج القطعي بالظني.

ومثال ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَهُنْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [النور: 23].

وسبب نزول هذه الآية: حادثة الإفك المشهورة، ولفظ الآية عام بالوعيد يشمل التائب وغير التائب. لكن الآية الأخرى استثنى من تاب فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبِلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [النور: 3-4]. فلفظ الآية هنا عام ثم خصص بقوله تعالى: **﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾**.

وبهذا التخصيص تخصص عموم الآية: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾** الآية.

²⁵ منهال العرفان، الزرقاني، ج 1، ص 106-107.

لكن التخصيص لآية الأولى لا يشمل سبب نزولها وهو قذف عائشة رضي الله عنها. فيبقى على عمومه بعدم قبول توبة من قذفها لأن دخوله في لفظ الآية الأولى العام قطعي، وإخراجه بما ورد في الآية الثانية اجتهادي ظني والقطعي لا يخرج بالظني.

وهذا يبقى حكم عدم قبول توبة القاذف خاصاً بقذف عائشة وأمهات المؤمنين، ويكون قبول التوبة في قذف غيرهن.

6- تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

ومثال قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ إِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا إِمَّا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِنَنَّهُمْ بِعْفَارَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188].

فقد أشكلت هذه الآية على مروان بن الحكم فقال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقال: لئن كان كل أمرئ فرح بما أوتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معدبا، لنعذبن أجمعين. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذا إنما دعا النبي ﷺ اليهود فسائلهم عن شيء فكتموه إيه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحدموا إليه ما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثمقرأ ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِثَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك حتى قوله: ﴿يَفْرَحُونَ إِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا إِمَّا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 187-188].
(رواہ البخاری ومسلم).

7- ومن فوائد معرفة سبب النزول كشف وجه من وجوده بلاغة القرآن الكريم حيث مراعاة الكلام لمقتضى الحال وذلك بالمطابقة والمقارنة بين الحادثة والنص القرآني الذي نزل فيها.

ويمثل له بالذين خلفوا، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيقُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ* وَعَلَى الْثَّالِثَةِ الَّذِينَ حُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ إِمَا رَحْبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مُلْجَأً مِّنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبه 119-117].

❖ قاعدة مهمة في التفسير: ((العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب))

□ إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم أو اتفق معه في الخصوص: حمل العام على عمومه والخاص على خصوصه.

* ومثال الأول: عموم اليهود وعموم النساء: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطْهَرْنَ فَأُنُوْهُنَّ مِنْ حِلْبَتِ أَمْرِكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] عن أنس رضي الله عنه قال: إن اليهود كانوا إذا حاضرت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤكلوها ولم يشاربواها...

* ومثال الثاني: الأنقى: أبو بكر الصديق، قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنِّبُهَا الْأَنْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَّكِي * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرِي * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 17-20]. فإنها نزلت في أبي بكر، والأنقى: أفعل تفضيل مقوون بـ(أ) العهدية فيختص من نزل فيه، وإنما تفيد (أ) العموم إذا كانت موصولة أو معرفة في جمع على الراجح، وـ(أ) في الأنقى ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعال التفضيل، والأنقى ليس جمعاً، بل هو مفرد، والعهد موجود لاسيما وأن صيغة أفعل تدل على التمييز، وذلك كاف في قصر الآية على من نزلت فيه، ولذا قال الواحدى : الأنقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين "عن عروة أن أبو بكر الصديق اعتق سبعة كلهم يعذب في الله: بلال، وعامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وأم عيسى، وأمة بنى المؤئل، وفيه نزلت ﴿وَسَيُجَنِّبُهَا الْأَنْقَى﴾.

(فهذا سبب خاص في قضية معينة، فهو خاص على خصوصه، فيكون المقصود بهذه الآية هو رجل خاص وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

□ أما إذا كان السبب خاصاً ونزلت الآية بصيغة العموم: فقد اختلف الأصوليون أن تكون العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب.

1 - فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب²⁶، فالحكم الذي يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها، كآيات اللعان التي نزلت في قذف هلال بن أمية زوجته: فعن ابن عباس: أن هلالاً بن أمية قذف امرأة عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشرييك ابن سحماء، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "البَيْتَةُ أَوْ حَدُّ فِي ظَهْرِكَ"، فقال: يا رسول الله، إذا رأى

²⁶ يعني أن أي آية نزلت في قضية معينة فإنها تشمل الجميع إلا ما ورد التخصيص في ذلك.

أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البيبة! فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "البيبة، وإن حدد في ظهرك"، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزل الله ما يري ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: **«والذين يرمون أزواجاهم»** حتى بلغ **«إن كان من الصادقين»** [النور: 6-9]. فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إليها، فجاء هلال شهدا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله يعلم أن أحدكم كاذب، فهل منكم تائب؟ ثم قامت شهادة، فلما كانت عند الخامسة وقوها، وقالوا: إنها موجبة، قال ابن عباس: فتكلّاث ونكصت، حتى ظننا أنها ترجم، ثم قال: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أبصروها؛ فإن جاءت به أكحل العينين، سابع الأليتين، خدج الساقين؛ فهو لشريك ابن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن.

فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام **«والذين يرمون أزواجاهم»** غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر. وهذا هو الرأي الراجح والأصح، وهو الذي يتفق مع عموم أحكام الشريعة، والذي سار عليه الصحابة والمجتهدون من هذه الأمة فعدوا بحكم الآيات إلى غير صورة سببها. فالاحتجاج بعموم الآيات التي نزلت على أسباب خاصة شائع لدى أهل العلم.

قال ابن تيمية: "قد يجيء هذا كثيراً ومن هذا الباب قوله: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾** [المائدة: 49] نزلت فيبني قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، هذا لا ي قوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد أن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعتم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره من كان بمنزلته، وإن كانت خيراً يمدح أو يذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته".

2- وذهب جماعة إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، فالللفظ العام دليل على صورة السبب الخاص، ولابد من دليل آخر لغيره من الصور كالقياس ونحوه، حتى يبقى لنقل رواية السبب الخاص فائدة، ويتطابق السبب والسبب تطابق السؤال والجواب.

وهذا القول الثاني هو خلاف ما عليه جمهور المحققين في هذه المسألة.
سؤال: اشرح هذه العبارة: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

الجواب:

قسم العلماء النازل من القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: أن يكون السبب خاصاً ولللفظ النازل خاصاً.

ثانياً: أن يكون السبب عاماً ولللفظ النازل عاماً.

فهذان النوعان لا خلاف بين العلماء في حمل كل منهما على الآخر وذلك للمطابقة بين السبب واللفظ المنزلي.

ثالثاً: أن يكون السبب خاصاً، ولللفظ النازل عاماً، فهذا الذي اختلف فيه العلماء، والذي عليه الجمهور أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمثلاً آيات الظهار وإن نزلت في خولة بنت ثعلبة مع زوجها إلا أن الحكم عام لهما ولغيرهما، وذلك لأنه لو أراد الله قصر الحكم على السبب ما أنزل علينا لفظاً عاماً، وأن حمل النصوص العامة على الأسباب الخاصة تخصيص للنص القرآني بما لا يصح أن يخصص به. كما أنه ينبغي العلم بأن الذين خالفوا الجمهور في أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، لأن هذا لا ي قوله عاقل ولا مسلم على الإطلاق؛ لأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين أن عموميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال إنما تختص بنوع ذلك الشخص فيعما ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ وإنما يكون بالقياس، أو بدليل آخر غير هذا الدليل الذي نزل في سبب خاص.

(فالآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره من كان بمنزلته، وإن كانت خبراً مدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره من كان بمنزلته أيضاً).

المحاضرة السادسة: علم القراءات القرآنية

القراءات القرآنية:

تعريفها: اختلاف ألفاظ الوحي في الحروف وكيفية أدائها. (تعريف الزركشي).

علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة. (تعريف ابن الجزري).

وعليه فعلم القراءات: يعني بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها معزّواً إلى ناقله²⁷.

فالقراءة: ما يُنسب للإمام القارئ، كالإمام نافع المدني، والإمام عاصم الكوفي.

والرواية: ما يُنسب للراوي عن الإمام القارئ، مثل رواية ورش عن نافع، وحفظ عن عاصم²⁸.

والطريق: ما يُنسب للأخذ عن الراوي وإن نزل، مثل طريق الأزرق عن ورش، أو الأصبهاني عن ورش، أو

Ubayd ibn al-Sabah عن حفص، ومثل طريق الشاطبية والدرة المضية، وطريق طيبة النشر²⁹.

أركان القراءة الصحيحة (إذا اختلف ركن صارت القراءة شاذة):

هناك ثلاثة شروط لصحة القراءة، وهي:

1- صحة السند واتصاله

2- موافقة القراءة للرسم العثماني.

3- موافقة القراءة للغة العربية ولو بوجه.

وهي ما ذكرها الإمام ابن الجزري رحمه الله بقوله:

وكلُّ ما وافق وجه نحوي أو كان للرسم احتمالاً يحوي

فهذه ثلاثة الأركان³⁰ أو صحَّ اسناداً هو القرآن

القراءات المتواترة:

²⁷ منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، ص.3.

²⁸ القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، محمد بن عمر بازمول، دار الفرقان، القاهرة، ط.1. 2009، ج.1، ص.120.

²⁹ المرجع نفسه، ج.1، ص.122.

³⁰ أي هذه أركان القراءة الصحيحة.

القراءات المتواترة هي عشر قراءات، تنسب كل قراءة إلى إمام من أئمة القراءة، وهذه النسبة ليست نسبة اختراع وإيجاد ولكنها نسبة ملزمة وإتقان، ولكل قارئ راويان، ولكل راو طريق أو أكثر، ونذكر قارئين فقط على سبيل المثال -لا الحصر-

1 _ قراءة الإمام نافع المدني (القارئ): رواها عنه عيسى بن مينا: (قالون الرواي)، وعثمان بن سعيد المصري: (ورش الرواي).

ورواية ورش رواها عنه أبو يعقوب يوسف الأزرق (صاحب طريق)، ورواهما عنه: أبو بكر محمد بن عبد الرحيم الأصبهاني (صاحب طريق).

2 _ قراءة الإمام عاصم بن أبي النجود الكوفي (القارئ): رواها عنه أبو بكر بن عياش الكوفي (شعبة الراوي)، وحفص بن سليمان الغاضري (الراوي)³¹.

أشهر القراء من الصحابة:

عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، أبي بن كعب، زيد بن ثابت، ابن مسعود، أبو موسى الأشعري،
أبو الدرداء.

أشهر القراء من التابعين:

ابن المسيب، عروة بن الزبير، سالم مولى ابن عمر، عمر بن عبد العزيز، سليمان بن يسار، يسار وأخوه
عطاء، ابن شهاب الزهري، عبد الرحمن بن هرمز، معاذ بن الحارث.

بمكة المكرمة: عطاء، مجاهد، طاوس، عكرمة ابن أبي مليكة، عبيد بن عمير.

بالبصرة: عامر بن عبد القيس، أبو العالية، نصر بن عاصم، الحسن البصري، بن سيرين، يحيى بن يعمر.
بالكوفة: علقمة، الأسود، مسروق، الريبع بن خيثم، عمر بن شرحبيل، أبو عبد الرحمن السلمي، زر بن حبيش..

بالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، خليل بن سعيد صاحب أبي الدرداء.

³¹ المرجع السابق، ج 1، ص 130.

القراء من أتباع التابعين:

المدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، شيبة بن ناصح، ثم ناصح بن أبي نعيم.

مكة: عبد الله بن كثير، حميد بن قيس الأعرج، محمد بن محيصن.

الكوفة: يحيى بن وثاب، عاصم بن أبي النجود، سليمان الأعمش، حمزة ثم الكسائي.

البصرة: عبد الله بن أبي اسحاق، عيسى بن عمر، أبو عمرو بن العلاء، عاصم الجحدري، يعقوب الحضرمي.

الشام: عبد الله بن عامر، عطية بن قيس الكلالي، إسماعيل بن عبد الله، بن مهاجر، يحيى بن الحارث، شريح بن يزيد الحضرمي.

القراء السبعة: وهم الذين عناهم ابن مجاهد، فهو أول من سبّعهم.

1-نافع المديني: وأشهر تلاميذه: قالون وورش.

2- ابن كثير المكي: وأشهر تلاميذه البزي وقبل.

3-أبو عمرو البصري: وأشهر تلاميذه الدوري والسوسي.

4-ابن عامر الشامي: راوياه: هشام وابن ذكوان

5- عاصم الكوفي: راوياه: حفص وشعبة.

6- حمزة الكوفي: راوياه: خلف وخلاف.

7- الكسائي الكوفي: راوياه: أبو الحارث والدوري.

تمام القراء العشرة:

8-أبو جعفر المديني: راويه ابن وردان وابن حماز.

9- يعقوب البصري: راويه رويس روح.

10- خلف العاشر البزار: إسحاق وإدريس.

قام القراء الأربع عشر (القراءات الشاذة):

- 11- الحسن البصري.
- 12- وابن محيصن.
- 13- يحيى البزيدي.
- 14- الشنبوذى.

سبب تعدد هذه الطرق

يقول الشيخ علي محمد الضبع: "لما اجتمع رأي أهل الأمصار على اختيار القراء العشرة المشهورين وأخذوا في تلقى قراءاتهم طبقة بعد طبقة إلى أن دونوها بالتأليف. وما كان من واجب كل مؤلف أن ينسب كل قراءة إلى صاحبها مع تعين ناقليها عنه طبقة بعد طبقة تحقيقاً لصحة سندتها وعلوه وللأمن من الوقع في التركيب، فبتتعيين الناقلين تعددت فروعهم إلى كل مؤلف وبتكرار الفروع في التأليف تعددت الطرق حتى بلغت على ما في الكتب التي آل الأمر فيأخذ القراءات منها في العصور الوسطى وهي تسعون كتاباً ذكرها ابن الجوزي في نشره زهاء عشرة آلاف طريق.

أقول: هذا قبل أن يؤلف ابن الجوزي كتابه النشر ثم قال الضبع: ولما ألف الإمام ابن الجوزي كتابه المذكور اقتصر فيه على الفروع التي علا سندتها وأكثر المؤلفون من ذكرها فجمع فيه منها ألف طريق من سبعة وثلاثين كتاباً وذكر معها أيضاً مختارات لم يسبق تدوينها وصح سندتها وتوفرت شروطها.

الأصول والفرش في القراءات:

أصول القراءات: هي القواعد المطردة التي تنطبق على كل جزئيات القاعدة، والتي يكثر دورها ويتحد حكمها³².

مثالها: الاستعاذه، البسملة، الإدغام الكبير، هاء الكنایة، المد والقصر، الهمزةتان من الكلمة ومن كلمتين، الإمالة... .

³² المدخل في علم القراءات المتواترة، عاشور حضراوي، دار البلاغ، الجزائر، ط2، ص41.

وأما الفرش (الكلمات الفوشية): فهي الكلمات التي يقل دورها وتكرارها، ولا يتتحد حكمها. وتسماى أيضاً بالفروع³³.

طرق تلقي القراءات:

الإفراد: هو أن يقرأ التلميذ على شيخه ختمة لكل راو أو لكل قارئ، وهكذا حتى يتم القراءات العشر. وهذه الطريقة هي الأصل في الإقراء، ولكن لطول الزمن الذي تستغرقه القراءة ولضعف الهمم توجه العلماء إلى القراءة بطريقة الجمع.

الجمع: هو أن يقرأ القارئ المقطع القرآني بقراءاته المختلفة، فإذا انتهى منه انتقل إلى مقطع آخر. وله عدة طرق:

أ_ الجمع بالآلية: وهو أن يحدد المقطع القرآني بأية واحدة، يستوفي فيه القارئ خلاف القراء ثم ينتقل إلى قارئ آخر... وهكذا، ويبدأ في كل آية برواية قالون ثم من يوافقه إلى أن يكمل أوجه جميع القراء.

ب_ جمع الماهر بالآلية: نفس الطريقة السابقة من حيث المقطع لكنها تختلف بأن التلميذ إذا انتهى بقارئ في الآية الأولى فإنه يبدأ به في الآية التالية.

ج_ الجمع بالوقف: وهو أن يحدد المقطع القرآني بالموضع الذي يقف عليه القارئ، ويستوفي فيه أوجه القراءة، ثم ينتقل إلى المقطع الذي يليه.

د_ جمع الماهر بالوقف: نفس الطريقة السابقة من حيث المقطع لكنها تختلف بأن التلميذ إذا انتهى بقارئ في المقطع الأولى فإنه يبدأ به في المقطع التالي.

قال ابن الجزري:

فالماهر الذي إذا ما وقف
يبدا بوجهه من عليه وقفًا
يعطف أقرباً مستوعباً مختصرًا مرتباً

ضابط القراءة بالجمع: مراعاة حسن الوقف والابداء، والبعد عن التلفيق وتركيب الأوجه في القراءة.

³³ المرجع نفسه، ص 41.

قال ابن الجزري:

وَجَمِعْنَا نَخْتَارَهُ بِالْوَقْفِ
وَلَا يُرِكِّبُ وَلَيُجَدُ حَسْنُ الْأَدَاءِ
وَغَيْرُنَا بِخَتَارَهُ بِالْحَرْفِ

هـ_ الجمع بالحرف: وهو أن يقرأ القارئ الآية فإذا مرت على الكلمة فيها خلاف كرر الكلمة بحسب أوجه الخلاف فيها ثم يكمل القراءة لقارئ واحد، وهكذا³⁴.

6_ كتب القراءات التي يجمع بعض منها:

1_ "التيسيير في القراءات السبع": ألفه الإمام أبو عمرو الداني (ت: 444هـ) نسبة إلى دانية بالأندلس، وقد اشتهر هذا الكتاب بالأندلس شهرة عظيمة وصار الطلبة يحفظونه ويرثون القراءات بمضمنه. وما زاد في شهرة هذا الكتاب ما قام به الإمام الشاطبي من نظم له في منظمه حرز الأماني.

2_ متن الشاطبية "حرز الأماني ووجه التهانى في القراءات السبع":
منظومة ألفية لامية مكونة من 1117 بيتاً، محكمة السبك من بحر الطويل، آية من آيات الله في البلاغة، نظمها الإمام القاسم بن فيء الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة 590هـ بمصر، وأصله من مدينة شاطبة بالأندلس.

أثنى عليها العلماء، فقال عنها الذهبي في معرفة القراء الكبار: "وقد سارت الركبان بقصيدة حرز الأماني وعقليةأتراك القصائد اللتين في القراءات والرسم، وحفظهما خلق لا يحصون، وخضع لها فحول الشعراء، وكبار البلاغاء، وحذاق القراء، فلقد أبدع وأوجز، وسهل الصعب، لذا تلقاها العلماء في سائر الأعصار والأمسكار بالقبول الحسن، وحظوا بأعظم عنابة".

وقال ابن الجزري: "ومن وقف على قصيده وقف على ما آتاه الله، خصوصاً اللامية التي عجز البلاغاء من بعده عن معارضتها، فإنه لا يعرف مقدارها إلا من نظم على منوالها، أو قابل بينها وبين ما نظم على

³⁴ انظر: المدخل في علم القراءات المتواترة، عاشور خضراوي، ص 33-34.

طريقها، ولقد رزق هذا الكتاب من الشهرة والقبول ما لا أعلم في كتاب غيره في هذا الفن، بل أكاد أن أقول ولا في غير هذا الفن. فإنني لا أحسب بلدا من بلاد الإسلام يخلو منه، بل لا أظن أن بيت طال علم تخلو منه نسخة"...

وقد ضمن الشاطبي كتاب "التيسيير" لأبي عمرو الداني في هذه المنظومة وزاد عليه بعض الخلافات، وهي ما عرف فيما بعد بزيادات القصييد، أي ما زادته الشاطبية على التيسير، يقول الشاطبي رحمه الله:

وفي يسرها التيسير رمت اختصاره	فأجنت بعون الله منه مؤملا
وألفافها زادت بنشر فوائد	فلفت حياء وجهها أن تفضل
ووجه التهاني فاهنه متقبلا	وسميتها حرز الأمانى تيمنا

-منهج الشاطبي في الترميز:

قد استخدم رحمه الله تعالى في منظومته رموزاً حرفية خاصة للدلالة على أسماء القراء، حيث رمز لكل قارئ بحرف، ولكل مجموعة من القراء برمز، فيقول رحمه الله:

جعلت أبا جاد على كل قارئ	Dililaً على المنظوم أول أولا
ومن بعد ذكري الحرف أسمى رجاله	متى تنقضى آتيك باللواو فيصلا

والمقصود بـأبا جاد، هجاء الحروف الأبجدية (أبج، دهز، حطي، كلم، نضع، فضق، رست، ثخذ، ظغضش). كل ثلاثة حروف لقارئ وراوييه، والثاء للكوفيين، والخاء لغير نافع (وهم ستة قراء)، والذال للكوفيين وابن عامر، والظاء للكوفيين وابن كثير، والغين للكوفيين وأبي عمرو، والشين لحمزة والكسائي.

كما خص بعض مجموعات القراء برموز كلامية وهي:

صحبة: شعبة وحمزة والكسائي.

صحاب: حفص وحمزة والكسائي.

عم: نافع وابن عامر.

سما: نافع وابن كثير وأبو عمرو.

حق: ابن كثير وأبو عمرو .
نفر: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر.
حرمي: نافع وابن كثير (الحرميان)
حصن: نافع والكوفيين.

وإذا سمح له النظم بذكر اسم القارئ الصريح أو لقبه فإنه يسميه وفي ذلك يقول:
وسوف أسمى حيث يسمح نظمه
به موضحاً جيداً معماً ومخولاً.
وإذا اختص القارئ بمذهب معين فإنه يخذه بباب خاص مثل:
الإدغام لأبي عمرو والوقف لحمزة وهشام على الهمز، وفي ذلك يقول:
ومن كان ذا باب له فيه مذهب فلا بد أن يسمى فيدرى ويعقلاء.
واصطلاح على ألفاظ عدها من الأضداد ليكتفي بذكر أحد الضدين ولعرف الآخر منه: فيقول:
وما كان ذا ضد فإني بضده غني فزاحم بالذكاء لتفضلاً.
والالمقدمة تحوي على وصايا جمة لقارئ القرآن فهي رائعة نافعة، ثم أتبعها بأبواب الأصول ثم الفرش في كل سور القرآن الكريم، فباب التكبير والخارج والصفات ثم خاتمة جميلة مثل المقدمة.
- من أشهر شروح الشاطبية:

- "فتح الوصيـد في شـرح القـصـيدـ" ، علم الدين السخاوي (ت 643) وهو تلميـذ الإمام الشاطـيـ.
- "إـبرـازـ المعـانـيـ منـ شـرحـ حـرـزـ الأـمـانـيـ" ، أبو شـامـةـ المـقـدـسيـ وهو تلميـذـ السـخـاوـيـ.
- "إـرشـادـ المـرـيدـ إـلـىـ مـقـصـودـ القـصـيدـ" ، عليـ محمدـ الضـبـاعـ، وله شـرحـ آخرـ مـختـصـرـ اسمـهـ: "تقـرـيبـ النـفعـ فـيـ القرـاءـاتـ السـبعـ".
- "الـواـفـيـ فـيـ شـرحـ الشـاطـبـيـ" ، عبدـ الفتـاحـ القـاضـيـ.
- "تقـرـيبـ المعـانـيـ فـيـ شـرحـ حـرـزـ الأـمـانـيـ" ، سـيدـ لـاشـينـ أـبـوـ الفـرـحـ، وـخـالـدـ الـحـافـظـ.

3 _ متن "الدرة المصية في القراءات الثلاث المرضية المتممة للشاطبية" لابن الجوزي:

منظومة مكونة من 240 بيت نظمها الإمام ابن الجوزي على وزن الشاطبية، ذكر فيها قراءات الأئمة الثلاثة المتممة للعشر وهي قراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب الحضرمي، وقراءة خلف البزار(العاشر). وذلك

كما ورد في كتابه "تحبير التيسير" في القراءات العشر الذي جمع فيه ابن الجوزي بين كتاب التيسير للداني والقراءات الثلاث المتممة للعشرة.

وجعل لكل واحد من هؤلاء الثلاثة أصلًا من القراء السبع فجعل أصل أبي جعفر نافعا، وأعطاه رمزه في النظم (أبج)، وجعل أصل يعقوب أبا عمرو البصري وأعطاه رمزه في النظم (حطي) وجعل أصل خلف حمزة وعطاه رمزه في النظم (فضق)، ولم يذكر في منظومته إلا ما خالف فيه هؤلاء أصولهم في الشاطبية

فإن خالفوا أذكر وإلا فأهملا
ورمزهم ثم الرواية كأصولهم

من شروحها:

- "الإيضاح على متن الدرة"، الزبيدي، وهو مطبوع بتحقيق عبد الرزاق علي موسى.
- "الإيضاح"، عبد الفتاح القاضي.
- "شرح الدرة"، السمنودي.

4_ كتاب "النشر في القراءات العشر" لابن الجوزي:

كتاب حافل عظيم جمع فيه ابن الجوزي خلاف القراء العشر في القرآن، قدم بمقدمة نفيسة في بيان فضل حملة القرآن وبيان جمعه وحفظه وضوابط القراءة الصحيحة وأقسام القراءات الشاذة، وتعريفًا موجزاً بالقراء العشرة وطرقهم، وبين مصادره فيما ذكره في النشر من القراءات فيما صار يعرف (بأصول النشر) وقام الدكتور أيمن سويد مع مجموعة من الباحثين بتحقيق بعضها فيما سماه "سلسلة أصول النشر". وهذا الكتاب لا غنى عنه لكل طالب في علم التجويد والقراءة.

وقد اختصره ابن الجوزي في كتاب آخر له سماه "تقريب النشر" وقام الشيخ زكريا الأنصاري باختصار التقريب وسماه "مختصر تقريب النشر".

5_ متن "طيبة النشر في القراءات العشر":

منظومة ألفها الإمام ابن الجوزي، عدد أبياتها: 1015 بيتا، ضمنها كتابه النشر، وجعلتها على بحر الرجز، واستخدم فيها رموز الشاطبي واصطلاحاته، إلا فيما ليس في الشاطبية من القراء، وفي ذلك يقول، بعد أن يسهل استحضار كل طالب.

بِينَ مَنْهَجَهُ فِيهَا: وَكُلُّ ذَا اتَّبَعَ فِيهِ الشَّاطِبِي

الشاطبية + الدرة = "القراءات العشر الصغرى".

الطيبة = "القراءات العشر الكبرى".

فائدة :

طرق الشاطبية والدرة لا تزيد عن واحد وعشرين طریقا لأن لكل راو طریقا واحدا ما عدا إدريس عن خلف في اختياره فله طریقان في الدرة ولذلك كانت تحریراتها سهلة وخفيفة.

أما طرق الطيبة فهي كما سبق زهاء ألف طریق لأن لكل راو من الرواية العشرين طریقين وكل طریق من طریقين الخ، يقول ابن الجزری: باثنين في اثنين وإلا أربع: فهي زهاء ألف طریق تجمع ولذلك كانت تحریراتها صعبة وطويلة، فبذل المحررون جهدهم وحصروا الآيات القرآنية وبينوا ما فيها من الأوجه المتنوعة والجائزة من خلال هذه الطرق في تصانیفهم فجزاهم الله خيرا.

هل كل ما ينسب للقراء السبعة أو العشرة في كتب التفسير والنحو واللغة متواتر؟

فالجواب عن ذلك: ليس كل ما يراه القارئ في كتب التفسير أو اللغة أو النحو من قراءات منسوبة إلى واحد من هؤلاء القراء السبعة أو العشرة متواترا إلا إذا كان مذكورة في كتاب النشر أو الشاطبية أو الدرة فقط، وما عدا ذلك فليس متواتر ولا يقال له قراءة سبعة أو عشرة لانقطاع سندها عنهم.

التحريرات:

تنقیح القراءة من أي خطأ أو خلل كالتركيب مثلا، ويقال له التل斐ق.

قال السخاوى في جمال القراء: "إن خلط هذه القراءات بعضها ببعض خطأ".

وقال القسطلاني شارح البخاري في لطائفه: "يجب على القارئ الاحتراز من التركيب في الطرق وتمييز بعضها من بعض وإلا وقع فيما لا يجوز وقراءة ما لم ينزل...".

وقال الشيخ مصطفى الأزميري: "التركيب حرام في القرآن على سبيل الرواية ومكرره كراهة تحرير على ما حققه أهل الدراسة، فالتدقيق في القراءات وتقويمها والعمل على تمييز كل رواية على حده من طرقها الصحيحة، وعدم خلطها برواية أخرى، هو معنى التحرير وفائدة، وفيه محافظة على كلام الله من أن يتطرق إليه أي محرم أو معيب".



سند روایة ورش بطريقیه

انتشار القراءات اليوم في العالم الإسلامي:

رواية حفص عن عاصم تنتشر في معظم الدول الإسلامية لا سيما في المشرق.

رواية قالون في ليبيا تونس وأجزاء من الجزائر.

ورواية ورش في الجزائر والمغرب وموريتانيا ومعظم الدول الإفريقية.

ورواية الدوري عن أبي عمرو في السودان والصومال وحضرموت في اليمن.

ثانياً: الأحرف السبعة

أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

لقد نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، وقد جاءت أحاديث صحيحة دلت على ذلك، منها:

ما رواه البخاري أن عمر بن الخطاب قال: "سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سم فلبيته بردائه فقلت من أفرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: كذبت أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال: أرسله، اقرأ يا هشام فقرأ السورة التي سمعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك أنزلت، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ يا عمر، فقرأت التي أقرأني فقال: كذلك أنزلت إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه".

الاختلاف بين الأحرف في القرآن

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: "إن هذاقرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ، فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري ففضلت عرقاً وكأني أنظر إلى الله فرقاً ، فقال لي:

يا أبي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هون على أمتي فرد عليّ الثانية أقرأه على حرفين، فرددت إليه أن هون على أمتي فرد إليّ الثالثة أقرأه على سبع أحرف فلك بكل ردة ردتها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم أغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ل يوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام".

كما روی مسلم أيضاً في صحيحه: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ أَصْنَاعَةٍ بْنِي غَفَارَ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حِرْفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حِرْفَيْنِ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّالِثَةُ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتَكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مَعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَطِيقُ ذَلِكَ، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أَمْتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيَّمَا حِرْفٍ قَرَأُوا عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا".

وما يدل عليه حديث أبي رضي الله عنه أن تباین الأحرف السبعة كائنة في القراءة وهيئات النطق بالقرآن الكريم، لأن أبياً رضي الله عنه استمع لتلاوة الرجلين في الصلاة فاستنكر مخالفتهما بما يعده في التلاوة، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد أقرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم بقراءة تلاوتهما، حيث أنزل القرآن على سبع أحرف تسهيلاً للأمة نظراً لاختلاف لهجات العرب وألسنتهم.

قال ابن قتيبة: "وَكُلُّ هَذِهِ الْحُرُوفِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى رَسُولِهِ السَّلَامُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَعْرَضُهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِّنْ شَهُورِ رَمَضَانَ بِمَا اجْتَمَعَ عَنْهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيَحِدِّثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ، وَيَنْسِخُ مَا يَشَاءُ وَيَسِّرُ عَلَى عَبَادِهِ مَا يَشَاءُ، فَكَانَ مِنْ تِيسِيرِهِ أَنْ أَمْرَهُ بِأَنْ يَقْرَئَ كُلَّ قَوْمٍ بِلُغَتِهِمْ وَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ عَادُوكُمْ...¹"

عدة الأحرف سبعة على الحقيقة

تدل الأحاديث الواردة أن المراد بالأحرف السبعة هي سبعة على الحقيقة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لما طلب الاستزادة منها ما طلب ذلك إلا تخفيضاً للأمة.

كما تدل الآثار أن كل حرف من الحروف السبعة المتزلة قرآن والقراءة بحرف واحد منها كاف شاف؛ لأن كل حرف مستغن بذاته عن غيره.

قال الطبرى في معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل شاف كاف": "فإنه كما قال جل ثناؤه في صفة القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتُكُمْ مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، جعله الله للمؤمنين شفاء، يستشفون بمواعظه من الأدواء العارضة لصدورهم ببيان

¹ آياته"

وبين عبد الرحمن الرازي أن كلاً من الأحرف قرآن يؤدي أغراض القرآن وآثاره فقال: "فأما قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر (كلها شاف كاف) فإن ابن عباس قال: كلها بيان وحكمة شافية للعباد كافية لهم، ومعنى ذلك أن كل حرف من الأحرف السبعة يشفي العباد ويكتفي بهم، ليس لأحد حداً فضل على الآخر، بعد كون جميعها منزلة من عند الله، وكلامه بكل واحد من الأحرف في الخبر موصوف بالشفاء والكافية لأهل التنزيل على الجملة نحو (شفاء ورحمة للمؤمنين)، (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب)".

مذاهب العلماء في معنى الأحرف السبعة

اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة وتشعبت أقوالهم وتعددت حتى بلغت في بعض الأقوال أربعين رأياً، منها ما يصلح للاعتبار والنظر والأخذ والرد والترجيح، ومنها أقوال ليس لها سند معتبر.

ويدل على ذلك قول القرطبي: "وقد اختلف الناس في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولًا..." . وقال السيوطي: "اختلف في معنى الحديث على نحو أربعين قولًا".

وفيما يلي أهمها:

❖ **المذهب الأول:** ذهب أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي إلى أن حديث الأحرف السبعة مشكل لا يعرف له معنى، وليس يدل على حكم ما، يدل على ذلك أن الحرف يصدق لغة على معانٍ كثيرة:

1. فالعرب تسمى القصيدة بأسيرها "كلمة" وتسمى هذه الكلمة المنظومة حرفاً.
2. كما يصدق الحرف لغةً على المعنى.
3. ويصدق أيضاً في الجهة.

وهكذا يرى ابن سعدان أن الحرف في اللغة مشترك لفظي لا يعرف معناه المقصود، والمشترك في اصطلاح الأصوليين: لفظ وضع وضعًا شخصياً لمعنىين فأكثر، بأوضاع متعددة ابتداءً، بلا نقل من معنى إلى آخر وهذا ينطبق تماماً على لفظ حرف.

وإن كان الحرف هنا ليس اللفظ وليس حروف الهجاء وليس المعنى، ولعل المقصود الأقرب لغة هو الجهة، معنى أن القرآن الكريم نزل على سبع جهات أو أنحاء من الكلام العربي، وبتعبير أدق على سبع من لغات القبائل العربية.

❖ **المذهب الثاني:** مذهب القاضي عياض ومن معه، ويرى أصحاب هذا المذهب أن المراد بالسبعة في الحديث التيسير والتسهيل والثقة، لا حقيقة العدد، مستدلين على ذلك أن لفظ السبعة يطلق في اللغة ويراد به الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد بها العدد المعين.

وقد ذهب لهذا الرأي محمد جمال الدين القاسمي في مقدمة تفسيره، وكذلك ذهب مصطفى صادق الرافعي إلى هذا القول معتمداً على أن السبعة ترمز إلى الكمال في نظر العرب، فقال: "ما كان العرب يفهمون من معنى الحرف في الكلام إلا اللغة، وإنما جعلها سبعة رمزاً للقوة من معنى الكمال في هذا العدد..."

ويرد على هذا القول بالأحاديث التي تضافت في الدلالة على أن المراد بالسبعة حقيقة العدد منحصرأ فيها.

❖ **المذهب الثالث:** أن معنى الحرف القراءة، روي ذلك عن الخليل بن أحمد، وأن القرآن نزل ليقرأ على سبع قراءات، قال القاضي الباقياني: "وزعم قوم أن كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة أوجه..."

❖ **المذهب الرابع:** وهو أن يرد الاعتراض السالف على أصحاب المذهب السابق أنه ليس المقصود أن لكل كلمة سبع قراءات، وإنما قد تقرأ الكلمة بوجه أو اثنين أو أكثر إلى سبعة. ويحاجب على ذلك: أنه لا يوجد في القرآن كلمة يصل تعداد قراءتها إلى سبع إلا القليل.

ويحاجب عن ذلك أيضاً أن بعض الكلمات تقرأ بوجوه كثيرة تتجاوز السبعة، كقوله تعالى: "عبد الطاغوت"، فهي تقرأ باثنين وعشرين وجهآً، وفي كلمة "أَفْ" سبع وثلاثون وجهآً

❖ **المذهب الخامس:** أن المراد بالأحرف السبعة في الحديث سبعة وجوه تنحصر في كيفية النطق بالتلاؤة، من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق، وإمالة وإشباع، ومد وقصر، وتشديد وتحفيف، وتلبيس وتحقيق، وهو محكمي عن بعض القراء.

ويجاب على ذلك أن جميع الوجوه المذكورة ترجع إلى نوع واحد وهو اختلاف اللهجات، ويكون تفسير حديث الأحرف السبعة به قاصراً عن شمول أنواع القراءات التي مردها إلى اختلاف اللهجات.

❖ **المذهب السادس:** أن المراد بالأحرف السبعة ينحصر في بعض الآيات إذ تقرأ على سبعة أوجه، ونقل هذا القول القاضي الباقياني عن جماعة، ويرد على ذلك أن الحديث الوارد في السبعة الأحرف يفهم منه جميع القرآن لا بعضاً.

❖ **المذهب السابع:** أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أصناف من المعانى أنزل الله القرآن عليها وهذه الأصناف هي: (أمر ونهي، ووعد ووعيد، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه) واستدلوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف، زاجر وامر، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه، وأمثال ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتكم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا "آمنا به كل من عند ربنا". وفي سند الحديث نظر

وحدث عمر رضي الله عنه ينفي ما فهمه أصحاب هذا المذهب من هذا الحديث، إذ أن الاختلاف كان على صلاة الرجل بقراءة ما أقرئها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه، وما كان الاختلاف لا في الزاجر ولا في الأمر ولا في الوعيد ولا في الحلال ولا في الحرام ولا في المحكم ولا في المتتشابه.

❖ **المذهب الثامن:** أن المراد بالأحرف السبعة هو الاختلاف في الكلام من سبعة وجوه:
1. الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، مثال ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون﴾ فرئت هكذا: "لأمانتهم" بالإفراد أيضاً.
2. اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وقرئت: ﴿ رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ على أساس أن الفعل تحول من فعل أمر لفعل ماض.

3. اختلاف وجوه الإعراب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيد﴾ قرئ برفع لفظ المجيد وجّره المجيد، فالرفع على أنه نعت لكلمة ذو، والجر على أنه نعت لكلمة العرش.

4. الاختلاف بالنقص والزيادة، مثاله قول الله تعالى: ﴿سَارِعُوا﴾ قرئ كذلك: ﴿وَسَارِعُوا﴾ بزيادة الواو.

5. الاختلاف بالتقديم والتأخير مثاله قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ قرئ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾.

6. الاختلاف في الإبدال: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَطَلَحٌ مَّنْضُودٌ﴾، قرئ: ﴿وَطَلَعٍ مَّنْضُودٍ﴾، بإبدال الحاء عيناً.

7. اختلاف اللهجات كالإملالة والتفخيم والترقيق والإظهار والإدغام، مثاله قول الله تعالى: "والضُّحَى" بالفتح وقرئ: "وَالضُّحَى" بالتشديد وبالإملالة¹. وهو المذهب الراجح، وذلك لأمور كثيرة منها:

1. أنه هو الذي تؤيده الأدلة في أحاديث الأحرف السبعة.

2. أنّ باقي الأقوال ضعيفة.

3. أنّ هذا المذهب اعتمد على الاستقراء التام لاختلاف القراءات، بخلاف المذاهب الأخرى التي كان استقراءها ناقصاً.

حكم إنزال القرآن على سبعة أحرف:

من أبرز حكم نزول القرآن على سبعة أحرف ما يلي:

1/ تيسير القراءة والحفظ والفهم على قوم يصعب عليهم النطق بلغة لم تألفها ألسنتهم وطبعهم، وهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون، شُبُّوا على لغة قومهم ولا يرتضون بها بديلاً، وتغيير العادة المستحكمة في النطق أمر عسير حتى على المتعلمين فضلاً عن الأميين.

2/ مراعاة لظروف الحياة القبلية في الجزيرة العربية القائمة على التعصب الكامل لكلٍّ ما له صلة بالقبيلة من نسب وأرض ومصلحة، ولسان يصعب التحول منه بين يوم وليلة.

3/ توثيق صلة القبائل العربية بالقرآن الكريم، وتحقيق مزيد استئناس وانسجام تام بينهم وبين القرآن الكريم وذلك من خلال مخاطبتهم بخطاب تألفه قلوبهم وألسنتهم، وهذا من دقائق فقه الدعوة، وهو مخاطبة المدعو بما يحب أن يستمع له من لغته.

4/ إعجاز الفطرة اللغوية عند العرب؛ فهو لم يكن إعجازاً للسان دون آخر، وإنما كان إعجازاً للفطرة اللغوية نفسها كله بل لهجته ولغته، فكلُّ عربي يجد في القرآن ما يوافق لحنه الفطري ولهجة قومه، مع بقاء التحدي والإعجاز، وعجز الجميع عن معارضته.

5/ فيه بداية لتوحيد لغات العرب على أفضح مختاراتها، وهي بداية في التدرج لجمع الأمة الإسلامية على لسان واحد يوحد بينها.

6/ فيه البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أنَّ هذا القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به، وهو الرسول ﷺ، فإنَّ هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقصود أو اختلاف فيه، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضاً، قال الأديب مصطفى صادق الرافعي: "إنَّ هذه الأحرف الكثيرة، والقراءات العديدة متيسقة، بعضها يؤيد بعضها من غير اختلاف يؤدي إلى تضاد في المعاني والدلائل، أو تناقض في الأحكام والأوامر، وهذا يبرهن على أنَّ القرآن الكريم من لدن حكيم خبير، لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

7/ في نزول القرآن على سبعة أحرف تشريف لهذه الأمة، وبيان لسعة رحمة الله وعنايته بها بأن يسر عليها كتابه غاية ما يمكن أن يكون من البيسر.

8/ كما فيه كذلك مزية للقرآن الكريم على سائر الكتب السماوية التي كانت تنزل على حرف واحد جملة واحدة، ونزل القرآن على سبعة أحرف منجماً على قلب النبي ﷺ.

9/ تعدد الألفاظ بما يسهل فهمه على القبائل العربية على حسب استعمال كل قبيلة للفظة العربية للمعنى الواحد يدل على أنَّ تدبر القرآن الكريم وتيسير فهم معانيه من أبرز المقاصد التي أنزل الله من أجلها

هذا الكتاب؛ لأنَّه ربما كان يستصعب على الواحد منهم فهم المعنى؛ لأنَّ اللفظة غير مستعملة في قبيلته وبينته التي نشأ فيها، فيجد في الأوجه الأخرى ما يسهل عليه فهم المراد حسب ما يتفق مع ذوقه وما اعتاده سمعه.

10/ زيادة الأجر والثواب للمجتهدin من أبناء هذه الأمة، فهناك من العلماء من ظلُّوا يبحثون في هذا الموضوع ويهتمون به لسنوات عديدة، فهذا يدل على اهتمامهم بالقرآن الكريم، واتصال فكرهم به، ولأنَّ هذه الأحرف نتج عنها اختلاف في أوجه القراءات وهذا يتطلب جهداً مضاعفاً للإمام بها والحافظة عليها، ويتربُّ عليه أجر وثواب عظيم.

المحاضرة السابعة: علم التفسير

التفسير في اللغة:

مأخذ من مادة "فَسَرٌ": ومعناها الإبانة والكشف، وهي كلمة تدور على معنى ظهور الشيء وبيانه وتوضيحة، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة التفسير بمعنى الكشف والبيان كما ورد في الآية القرآنية الوحيدة: **وَلَا يَأْتُونَكَ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** [الفرقان: 33]، أي: تفصيلاً وتوضيحاً.

وفي الاصطلاح:

علم يعرف به فهم كتاب الله؛ المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.
وقيل: علم يفهم به كلام الله عَجَّلَ على قدر الطاقة البشرية".

فهو علم يفهم به القرآن لعرفة معانيه واستخراج أحكامه وحكمه وعظاته وعبره
ويعرف الزركشي التفسير بأنه: علم نزول الآية وسورتها وأصاصتها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب
مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابها وناسخها ومنسوخها وخاصتها وعامتها ومطلقها ومقيدها ومجملها
ومفسرها.

وكان يسمى التفسير عند السلف التأويل وهذا من حديث النبي لابن عباس عندما دعا له (اللهم فقهه
في الدين وعلمه التأويل)

وأما التأويل: فهو مأخذ من الأول للدلالة على الرجوع والصيغة، ومنه آلت إليه السلطة، أي: رجعت
إليه، وقد وردت في القرآن الكريم فاستعملت مصدراً في قوله تعالى: **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ**
فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ [آل عمران: 7].

وقد وردت في آيات قرآنية أخرى، ولم يرد استعمال كلمة التأويل إلا في المقام الذي يعزّ فيه البيان، ويدق
فيه الفهم، كالآيات المتتشابهات والأحلام والرؤى، والمصير المجهول.

الفرق بين التفسير والتأويل:

ذهب كثير من العلماء إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد، كما قاله أبو عبيد، وقال مجاهد: "إن العلماء
يعلمون تفسيره وتأويله"، وهو قول ابن جرير الطبرى بداية من تسمية كتابه: "جامع البيان في تأويل آي

القرآن" ، ثم في تفسيره للاية بقوله: "اختلف أهل التأويل، أو القول في تأويل الآية" ، وهو يساوي بذلك بين مدلول الكلمة التفسير والتأويل.

وذهب آخرون إلى أن معنى التفسير يخالف معنى التأويل في وجه من الوجه.

قال اليسابوري: "قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه" ، فهؤلاء يرون أن التفسير يتعلق بما حول النصّ، وما يتبدّل إلى الذهن لأول نظرة، أما التأويل فإنه الوصول إلى أعمق النصّ، وهو صرف اللفظ إلى ما يمكن أن يتحمّله من معنى.

وقال الأستاذ الذهبي بعد عرضه لمعظم التعريفات والأقوال في التفريق بينهما: "والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال هو أن التفسير "ما كان راجعا إلى الرواية" ، والتأويل: "ما كان راجعا إلى الدراءة" ، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حادث وواقعة، وجالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانٍ القرآن الكريم. وأما التأويل: فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل.

والترجح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعاني، وغير ذلك.

قال الزركشي: "وكان السبب في اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل، التمييز بين المنقول والمستنبط؛ ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط".

أهمية تدبر القرآن:

أمرنا الله عَزَّوجَلَّ بتدبر هذا الكتاب العزيز، والسعى لفهم معانيه؛ لأن ذلك طريق الإيمان، والعمل الصالح، قال ابن قيم الجوزية: "ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر، ويتفكّر فيه، ويعمل به، لا مجرد التلاوة مع الإعراض عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله؛ الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم" وما يؤكد على أهمية فهم القرآن أن الله ذم كل من أعرض عن تدبر معانيه.

مرواتب التفسير

المরتبة الأولى: التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها

المরتبة الثانية: التفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته وهو المراد من القرآن الكريم بالجملة مثال الفاتحة

المরتبة الثالثة: التفسير الذي يعلمه العلماء وهو الذي يحتاج إلى دراية وبحث

المরتبة الرابعة: التفسير الذي لا يعلمه إلا الله

- حكم تعلم التفسير: فرض كفاية

تاريخ التفسير ومراحل تطوره ومدارسه:

أـ تاريخ التفسير

إن نشأة علم التفسير كان متزامن مع نزول القرآن الكريم فإذا نزلت آية كان يبينها الرسول صلى الله عليه وسلم ويفسرها لأصحابه حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المرجع في تبيين الكتاب وبيان معانيه وسار الصحابة على هذا المنهج في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم اتسعت البلاد ودخل الناس في الإسلام "أفواجاً" ودخلت العجمة واللحن إلى السليقة السليمة فاحتاج المسلمون لشرح وبيان الألفاظ والآيات من القرآن الكريم فقام الخلفاء بالتصدر لهذا الأمر وتکلیف العلماء من الصحابة بتفسير القرآن الكريم وتبيينه للناس وكان من أشهر الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلي ابن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود وعبد الله ابن مسعود وزيد ابن ثابت وأبو موسى الأشعري وعائشة وغيرهم

وكان سيد المفسرين لمن بعده هو عبد الله ابن عباس ويليه عبد الله ابن مسعود.

ثم جاء عصر التابعين حيث نهلوا علم التفسير من كبار الصحابة ومن أبرز المفسرين ومن أهم المفسرين من التابعين مجاهد ابن جبر وسعيد ابن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس وعطاء وهؤلاء تلاميذ

ابن عباس وسعيد ابن المسيب وزيد ابن أسلم وعلقمة ابن قيس ومسروق ابن الأجدع والشعبي وابراهيم النخعي والحسن البصري ومحمد ابن سيرين وقتادة والضحاك وغيرهم من التابعين

ثم جاء عصر تابعي التابعين وساروا على خطى أئمتهم واشتغلوا في تفسير كلام الله بالتأثر والرأي وبغير ذلك حتى عصرنا الحالي.

ب_ مراحل تطوره:

بداية عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة:

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالبلاغ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة:67]. وكلفه بالبيان. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْدِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُرِّزَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]. فالنبي صلى الله عليه وسلم هو أول المفسرين للقرآن الكريم.

عصر الصحابة والتابعين ومدارسهم:

ثم جاء دور الصحابة في التفسير، وأشهر المفسرين عند الصحابة ومدارسهم:

1_ ابن عباس (شيخ مدرسة التفسير بمكة): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نعم ترجمان القرآن أنت". وقال علي في ابن عباس: "إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق لعقله وفطنته". ومن تلامذته: مجاهد بن جبر، عطاء بن أبي رباح، سعيد بن جبير، عكرمة مولى بن عباس، طاوس بن كيسان. وتفسير ابن عباس من خير التفاسير، إلا أن الناس قد دسوا ووضعوا عليه الكثير حتى قال الشافعي: "لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث".

وهناك تفسير ينسب إلى ابن عباس وهو "تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" جمعه صاحب القاموس المحيط أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، وفيه كثير من الروايات الضعيفة.

2_ علي بن أبي طالب: وهو أكثر الخلفاء الأربع تفسيراً للقرآن ورواية للحديث، وذلك لتأخر وفاته عنهم، ولسعة اطلاعه على لغة العرب، ولجاجة الناس إليه في زمانه، وقد عرف - رضي الله عنه - بحدة ذكائه وفصاحة لسانه، وسرعة بديهته، وغزاره علمه، ومعرفته لأسباب النزول.

ولكنه هو أيضاً قد كذب عليه خلق كثير، ودسوا عليه أقوالاً لم يقلها، ونسبوا إليه أفعالاً لم يفعلها.

3_ عبد الله بن مسعود (شيخ مدرسة التفسير بالعراق): وهو من الصحابة الذين رحلوا إلى العراق، فكان مرجعهم في تفسير القرآن، وقد كان عالماً بأسباب النزول، عارفاً بأحوالها، ويذكرنا شهادة علي بن أبي طالب حين قالوا له: أخبرنا عن ابن مسعود؟ فقال: "علم القرآن والسنة"، ومن تلامذته: مسروق بن الأجدع، قتادة بن دعامة، الحسن البصري والهمداني.

4_ أبي بن كعب (شيخ مدرسة التفسير بالمدينة): سيد القراء وأول من كتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار، وكتب له الرسائل والعقود، وشارك في جمع القرآن. وما سأله النبي صلى الله عليه وسلم أبداً عن أي آية في القرآن أعظم، فقال أبي الله لا إله إلا هو الحي القيوم. ضرب النبي صلى الله عليه وسلم في صدره وقال: ليهندك العلم أبا المنذر"، وقال عنه عمر: "من أراد أن يسأل عن القرآن؛ فليأتِ أبي بن كعب".

ومن تلاميذه: أبو العالية، رفيع بن مهران، زيد بن أسلم.

ج_ مدارس التفسير:

1 - مدرسة مكة:

وهم أعلم الناس في التفسير لأنهم أصحاب ابن عباس، ومن هؤلاء التابعين المبدعين:

أـ مجاهد بن جبر، وهو أوثق تلميذ ابن عباس، وقد اعتبر البخاري والشافعي تفسيره حجة، قال النووي: "إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبيك به". ييد أن الرواية عن هذا الإمام قليلة، ويرى بعض العلماء أن مجاهد كان يسأل أهل الكتاب، فيترى في أخذ أقواله المنسوبة إليهم.

ب- عطاء بن أبي رباح، وقد شهد له العلماء بعلو كعبه في هذا العلم وبعد الله وتقواه، قال قتادة: "أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك"، وقال أبو حنيفة: "ما لقيت أحداً أفضل من عطاء".

ج- سعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وقد أكثر من التفسير، وطاووس بن كيسان اليماني.

2 - مدرسة المدينة:

ومن أشهر التابعين المفسرين فيها:

أ- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، وهو من رواة أبي بن كعب. وقرأ القرآن على زيد بن ثابت وابن عباس.

ب- محمد بن كعب القرظي المدني ثم الكوفي.

ج- زيد بن أسلم، وقد أخذ عنه مالك بن أنس إمام دار الهجرة.

3 - مدرسة العراق:

من أشهر التابعين:

أ- مسروق بن الأجدع الكوفي. الملقب بـ"المحضرم" لأنه أسلم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره.

ب- قتادة بن دعامة السدوسي البصري، وقد وثقه أئمة الجرح والتعديل كيحيى بن معين.

ج- أبو سعيد الحسن البصري: إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمانه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك.

د- مرة بن شراحيل الهمذاني الكوفي: ويُعرف بـ"مرة الطيب" وـ"مرة الخير". كان من عباد أهل الكوفة وصالحهم، وهو تابعي ثقة.

فهؤلاء هم أشهر التابعين فيسائر الأمصار، وعنهم أخذ تابعو التابعين كسفیان ابن عینة، ووکیع بن

الجراح، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، ويزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وعبد الرزاق بن همام الصناعي (شيخ البخاري)، وإسحاق بن راهويه، وأدم بن أبي إياس العسقلاني.

تدوين التفسير:

بقي علم التفسير مفرقاً ومتثوراً في أحاديث متفرقة، فيروي الصحابي أو التابعي تفسير الآية دون أن يرتب ذلك في باب أو كتاب، ولم يرد إلينا كتاب في التفسير يفسر لنا القرآن سورة سورة، وآية آية، كما هي مرتبة في المصاحف، والذي يروي أن الفراء (المتوفى سنة 207هـ) هو أول من قام بتفسير القرآن سورة سورة وآية آية. قال ابن النديم في كتابه الفهرست: "إن عمر بن بكر كتب إلى الفراء أن الحسن بن سهل ربما سأله عن شيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه".

فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملأ عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه القراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب، ففسرها ثم استوى الكتاب كله، يقرأ الرجل ويفسر الفراء. فقال أبو العباس ثعلب: "لم ي عمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه".

وقوله لم ي عمل أحد قبله مثله، فهذا رأيه وبما قارنه مع غيره من التفاسير. وأما قوله: ولا أحسب أحداً يزيد عليه، فإن حسبانه لم يكن كما توقعه بل وجد الكثير وأول الكتب التي تفوقت عليه تفسير ابن جرير الطبرى.

أقسام التفسير:

يمكن تقسيم التفسير باعتبارات عده:

1 باعتبار طرق الوصول إليه: وجهة استمداده تكون من الطريق المعتمد نقلًا كان من القرآن نفسه، أو من السنة، أو من كلام الصحابة، أو التابعين، أو كان رأياً واجتهاداً. أو من غير هذا الطريق بأن يكون بطريق الإلهام والفيض، فالتفسير ينقسم بهذا الاعتبار إلى أربعة أقسام:

- تفسير بالرواية: ويسمى التفسير بالتأثر.
- تفسير بالدراءة: ويسمى التفسير بالرأي.
- تفسير بالدراءة والرواية: ويسمى التفسير الأثري النظري.
- تفسير بالفيض والإشارة: ويسمى التفسير الإشاري.

2 باعتبار أساليبه:

ينظر إلى التفسير من جهة كونه شرحاً مجرداً معنى الكلمة في اللغة، ثم معنى الجملة أو الآية على سبيل الإجمال أو التفصيل، وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى قسمين:

تفسير إجمالي.

تفسير تحليلي.

3 من جهة تناوله لموضوعات القرآن:

ينظر إلى التفسير من جهة خصوص تناوله لموضوع ما من موضوعات القرآن الكريم، عاماً كان كالعقيدة والأحكام أو خاصاً كالصلة ونحوها. وهو بهذا الاعتبار ينقسم إلى:

تفسير عام.

تفسير موضوعي.

أنواع التفسير:

يقسم معظم العلماء التفسير إلى قسمين:

1 - التفسير بالتأثر: فهو كل تفسير يعتمد على المصادر التفسيرية: القرآن والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين.

التفسير المتأثر وهو على أنواع:

1- تفسير القرآن بالقرآن: ومن أمثلته:

- **﴿وَالسَّمَاءُ وَالْطَّارِقُ﴾** ورد تفسيرها في السورة نفسها بالآية التي بعدها: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْطَّارِقُ * النَّجْمُ الظَّاقِبُ﴾** [الطارق: 3-1].

- **﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّين﴾** [الفاتحة: 4]، ورد تفسيرها في سورة الانفطار: **﴿يَصْلُوْنَهَا يَوْمَ الدِّين * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّين * يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾** [الانفطار: 15-19].

- **وقوله في سورة الفاتحة أيضاً:** **﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾** [الفاتحة: 6-7]. فقد جاء تفسير الصراط من القرآن نفسه، وذلك في سورة النساء: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ﴾** [النساء: 69]

2- تفسير القرآن بالسنّة: ومن أمثلته:

- البيان العام حيث جاءت السنّة ببيان كيفية الصلاة وأوقاتها وأنواعها في مثل قوله تعالى: **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾** [البقرة: 43]، فالسنّة بينت أحکام الصلاة.

- البيان الخاص في مثل قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُهُمُ الرَّحْمَانُ وُدُّدًا﴾** [مرim: 96]. فسر بحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أحب الله عبداً نادى: يا جبريل إني أحببت فلاناً فأحببه، قال: فینادي في السماء، ثم تنزل له الحبة في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُهُمُ الرَّحْمَانُ وُدُّدًا﴾**

لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًا، وإذا أبغضت الله عبداً نادى: يا جبريل، إني أبغضت فلاناً فينادي في السماء، ثم تنزل له البغضاء في الأرض³⁵.

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ الآية [الأعراف: 82]، شق ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، أينما لم يظلم نفسه؟! قال: "ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكُ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]".

3- تفسير القرآن بقول الصحابة: ومن أمثلته:

- ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء: 43]، فسرها ابن عباس بالجماع. وقال: "اللمس، والمس، والمباشرة: الجماع، ولكن الله يُكْنِي بما يشاء". وأما ابن مسعود فيقول: "اللمس: ما دون الجماع".

4- تفسير القرآن بأقوال التابعين: وذلك بأن يفسر التابعي ألفاظ وآيات القرآن الكريم.

أشهر كتب التفسير بالتأثير:

- جامع البيان في تأويل آي القرآن / الطبرى (ت 310 هـ).
- بحر العلوم / أبو الليث السمرقندى (ت 375 هـ).
- الكشف والبيان / أبو إسحاق الشعли (ت 427 هـ).
- النكارة والعيون / أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ).
- معالم التنزيل / البغوى (ت 516 هـ).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / ابن عطية الأندلسى (ت 546 هـ).

³⁵ الترمذى. سنن الترمذى. ج. 5. ص. 318.

³⁶ البخارى، صحيح البخارى، ج 4، ص 141.

- باب التأويل في معاني التنزيل / علاء الدين الحازن (ت 741 هـ).
- تفسير القرآن العظيم / ابن كثير (ت 774 هـ).
- الجوادر الحسان في تفسير القرآن / عبد الرحمن الشعالي (ت 875 هـ).
- الدر المنثور في التفسير بالتأثر / جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).
- موسوعة التفسير المأثور / مجموعة من المؤلفين المعاصرين.

2-التفسير بالرأي: وهو أن يعمل المفسر عقله في فهم القرآن، والاستنباط منه، مستخدماً آلات الاجتهاد. وينقسم إلى قسمين: محمود ومذموم.

-التفسير بالرأي المحمود: هو كل رأي مستمد من القرآن والسنة، وكان صاحبه عالماً باللغة العربية وأساليبها والشريعة، فهو تفسير يجمع بين المأثور وبين اللغة والأحكام والأصول والقواعد، ولكن ينبغي أن يكون الرأي والاجتهاد فيما لا مجال للنص فيه، وليس للنبي فيه قول قاطع، ولا بد أن يكون من كان أهل للاجتهاد، من عرف لغة القرآن، وألم بقواعد الشرع وأصوله.

ومن أمثلته:

- جامع البيان في تأويل آي القرآن / أبو جعفر الطبرى (ت 310 هـ).
جمع بين التفسير بالتأثر والتفسير بالرأي. والطبرى لا يقف عند حدود النقل، فكثيراً ما يرجح بين الروايات، أو ينقدتها، ويختار من ذلك ما يراه أقوى حجة وأوضح دليلاً، ويقول: (والصواب عندنا في ذلك). وهو يذكر وجوه القراءات ويوجهها، ويدرك وجوه الإعراب ويبين آراء النحويين فيها، ويشير إلى الأحكام الفقهية عند تفسيره آيات الأحكام فيبين مذاهب الفقهاء فيها.
- تأويلات أهل السنة / أبو منصور الماتريدي (ت 333 هـ).
- تفسير ابن فورك / أبو بكر بن فورك (ت 406 هـ).
- النكت والعيون / الماوردي (ت 450 هـ).

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / ابن عطية الأندلسي (ت 546 ه).
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي (ت 606 ه).
- الجامع لأحكام القرآن / القرطبي (ت 671 ه).
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ناصر الدين البيضاوي (ت 685 ه).
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل / حافظ الدين النسفي (ت 710 ه).
- لباب التأويل في معاني التنزيل / علاء الدين الخازن (ت 725 ه).
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان / نظام الدين النيسابوري (ت 728 ه).
- التسهيل لعلوم التنزيل / ابن جزي الغرناطي (ت 741 ه).
- البحر الحيط / أبو حيان الأندلسي (ت 754 ه).
- الدر المصنون في علوم الكتاب المكنون / السمين الحلبي (ت 756 ه).
- تفسير الجلالين / جلال الدين المحلي (ت 864 ه) وجلال الدين السيوطي (ت 911 ه).
- الجوادر الحسان في تفسير القرآن / عبد الرحمن الثعالبي (ت 875 ه).
- اللباب في علوم الكتاب / ابن عادل الحنبلي (ت 880 ه).
- نظم الدرر في تناسب الآيات وال سور / برهان الدين البقاعي (ت 885 ه).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / أبو السعود أفندي (ت 951 ه).
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير/ الخطيب الشربيني (ت 977 ه).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / الألوسي (ت 1270 ه).
- تفسير المنار / محمد رشيد رضا (ت 1354 ه).
- تفسير المراغي / أحمد مصطفى المراغي (ت 1371 ه).
- تفسير شلتوت / محمود شلتوت (ت 1383 ه).

• التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" / محمد الطاهر بن عاشور (ت 1393 هـ). وهو تفسير قيم، أمضى في تفسيره قرابة الأربعين عاماً، وقد اشتمل على كثير من الفوائد واللطائف والتحريرات، مع الحرص على تلمس الحكم من الأحكام والتشريعات، والإكثار من النقول عن الأئمة والعلماء في شتى العلوم سواء كانت شرعية أو لغوية أو بلاغية أو غيرها من فروع العلم. وقد بين منهجه فيه في مقدمته فقال: «... وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها البعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى نظم الدرر في تناسب الآي وال سور إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، أما البحث عن تناسب موقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقاً على المفسر. ولم أغادر سورة إلا بيّنت ما أحبط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه وتحجب عنه روائع جماله. واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتاً على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير، بحيث ساوي هذا التفسير على اختصاره مطولات القماتير، وفيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير. وسميتها: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، واختصرت هذا الاسم باسم "التحرير والتنوير من التفسير" وها أنا أبتديء بتقديم مقدمات تكون عوناً للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير».

• زهرة التفاسير / محمد أبو زهرة (ت 1394 هـ).

• خواطر الشعراوي / محمد متولي الشعراوي (ت 1418 هـ).

وغير ذلك من كتب التفسير بالرأي التي لا تكاد تحصر.

- وأما التفسير بالرأي المذموم فهو تفسير القرآن الكريم بمجرد الرأي والهوى فلا يستند على أصول شرعية وقواعد تفسيرية... وقد ذكروا كأمثلة عليه:

تفسير أبي علي الجبائي وتفسير القاضي عبد الجبار المعزلي وغيرهم.

_ وأما تفسير القرآن وفق لغة العرب فهو من طرق التفسير، فإذا لم يجد المفسر لتفسير الآية تفسيراً لا في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين، عليه أن يرجع إلى اللغة العربية التي نزل بها، ولا يمكن لإنسان يجهل لغة العرب نحواً وصرفها وبلاهة ومعنىًّا أن يقدم على تفسير القرآن؛ لأن هذا من أدوات الاجتهاد المعينة على إدراك معاني القرآن الكريم.

3- التفسير الفقهي لآيات الأحكام:

- أحكام القرآن للجصاص الحنفي.

- أحكام القرآن للكيا الهراسي الشافعي.

- أحكام القرآن لابن العربي المالكي.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المالكي.

4_ التفسير الإشاري:

ومن أهم كتب التفسير التي اهتمت بالتفسير الإشاري:

- تفسير سهل التستري (ت 283 هـ): (تفسير القرآن العظيم).
- وتفسير أبي عبد الرحمن السُّلْمي (ت 412 هـ): (حقائق التفسير).
- وتفسير أبي القاسم القشيري (ت 465 هـ): (لطائف الإشارات).
- وتفسير محيي الدين عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ): (تفسير الجيلاني).
- وتفسير أبي محمد البقلبي الشيرازي (ت 606 هـ): (عرائس البيان في حقائق القرآن).
- وتفسير نجم الدين الكبرى (ت 618 هـ): (التأويلات النجمية في التفسير الإشاري الصوفي).

- وتفسیر محيی الدین بن عربی (ت 638 هـ): (تفسیر القرآن الکریم).
- وتفسیر عز الدین الرسعنی (ت 661 هـ): (رموز الکنوز فی تفسیر الكتاب العزیز).
- وتفسیر احمد بن عجیبة (ت 1224 هـ): (البحر المدید فی تفسیر القرآن الجید).
- وتفسیر شهاب الدین الألوسي (ت 1270 هـ): (روح المعانی فی تفسیر القرآن العظیم والسبع المثانی).

ترجمة معانی القرآن الکریم

إنّ ترجمة القرآن على نوعين:

- 1- ترجمة حرفية بأن يضع كل كلمة بيازها.
- 2- ترجمة معنوية تفسيرية بأن يعبر عن الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة للمفردات والتراكيب.

مثال تطبيقي عن الترجمة القرآنية:

ترجمة "الحمد لله" إلى "praise and gratitude belong to Allah"

معنى: "الثناء والشكر لله"

"praise belongs to Allah" لأنّه لا يمكن ترجمة الآية إلى المدح لله

"Thanks belong to Allah" ولا يمكن ترجمتها فقط إلى الشكر لله

فكلمة "الحمد" تتضمن شيئين: "praise" و "gratitude"

وهما شيئاً مختلفان جداً، وللغة العربية تحوي كلّمة لكلّ منهما:

فيمكن أن تترجم "praise" إلى "مدح" أو "ثناء"

ويمكن ان تترجم "gratitude" إلى "شكراً"

فـ "الحمد لله" تتضمن معنى المدح والشكر، فهي تشمل الأمرين في كلمة واحدة.

وعليه فالترجمة التفسيرية للقرآن عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، دون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، دون المحافظة على جميع معانيه المراده منه؛ وذلك بأن نفهم المعنى الذي يراد من الأصل، ثم نأتي له بتركيب من اللغة المترجم إليها، يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له.

ومثالها أيضاً لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29] ترجمة حرفية لأي بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير في اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدي المعنى الذي قصده القرآن؛ بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذي ينهى عنه القرآن، ويقول في نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذي نهى عنه القرآن؛ لأنَّه مثير للضحك على فاعله والساخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذي أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ. أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة تفسيرية، فإنه يأتي بالنهي عن التبذير والتقتير مصوّرٍ بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها، ويناسب عادة من يتكلم بها، ومن هذا يتبيّن أنَّ الغرض الذي أراده الله من هذه الآية، يكون مفهوماً بكل سهولة ووضوح في الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

وإذا عُلم هذا، أصبح من السهل القول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية، فهي ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التي نزل بها.

حكم الترجمة الحرفية:

أجمع العلماء على مر العصور على استحالتها، وذلك لأنَّها متضمنة محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه؛ مع الاحتفاظ بدلالاته القرية، والبعيدة، والأصلية، والتبعية، وسائر ما يمتاز به من إيقاع وتأثير وذلك لما يلي:

أ/ أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تقع أساساً لا في الشعر، ولا في النثر من كلام البشر، وفي جميع اللغات، فكيف بها في كلام الله الذي بلغ من البيان أعلاه، ومن اللسان أكمله وأعذبه؛ بصورة يعجز البشر أن يأتوا بمثله من لغته.

ب/ أن القرآن كلام الله المعجز لا يمكن الإتيان بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو سورة من مثلك فيما سواه من كلام البشر، ولو كان عربياً فضلاً عن الإتيان بمثله من كلام العجمي، وقد جاء هذا التحدي صريحاً للعرب أهل الفصاحة، والبلاغة، فعجزوا عن الإتيان بمثله، ولو بأقصر سورة منه.

ج/ أن الترجمة الحرفية لابد فيها من مراعاة صورة الأصل في لفظه، ونظمها؛ مع الوفاء بـكامل معانيه، ومقاصده، والإحاطة بـكامل معاني القرآن، ومقاصده أمر مستحيل، ولا يمكن لأحد أن يحيط بكل دلالات القرآن، ومعانيه الأصلية والتبعية، و دقائق نظمها، وترتيبها، فضلاً عن أنه لا توجد لغة في الدنيا تحمل من الخصائص ما تحمله لغة القرآن الكريم.

د/ من المفهوم السائد عند اللغويين أنه لا توجد مفردتان متساويتان تماماً في دلالةهما . ليس بين لغة وأخرى بل حتى في اللغة الواحدة، ولذا فالترجمة الحرفية للقرآن الكريم غير ممكنة عقلاً، ولا تسمى أي ترجمة قرآنًا، ولا تعطى حكمه، ولا تحمل خواصه. ولذا قال العلماء: لا يجوز الإقدام عليها شرعاً لما يترتب عليها من المفاسد من ذلك ما يلي:

1/ إيهام أن الترجمة حلت محل القرآن في جميع خصائصه فيترك التعبد بتلاوته.

2/ فتح باب الاختلاف بين المسلمين حول هذا الكتاب الذي أمروا بالاعتصام به والتوحد عليه، إذ كل أمة ستكتفي بالترجمة الحرفية التي بين يديها، وأنها أوفى بالغرض المقصود من غيرها.

3/ الإخلال بحفظ القرآن الكريم كما أنزل في نظمها، وأسلوبه، وتعريضه للتغير، والتبدل، خاصة إذا وصل الأمر إلى حد الاستغناء عن القرآن بترجماته.

4/ فيها إخراج للقرآن الكريم من إعجازه، وفيه تضييع لكثير من أحكامه وبيانه، وتکذيب الله في أنه لا يأتي أحد بمثل القرآن، ولن يأتوا بمثله أبداً.

5/ ليس هنالك ضرورة للترجمة بغرض التعبد باللفظ؛ وذلك أن المشاهد بين كثير من المسلمين غير العرب عبر التاريخ وإلى يومنا هذا أنهم قرأوا القرآن وحفظوه رغم عدم معرفتهم باللغة العربية، وهذا من فضل الله على الناس كافة بأن يسر عليهم كتابه العزيز.

حكم الترجمة التفسيرية:

إنّ تفسير القرآن الكريم من العلوم التي فُرِضَ على الأمة تعلمها، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]. والترجمة التفسيرية تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضًا من الأمور التي فُرِضَت على الأمة؛ بل هي آكدة؛ لما يترتب عليها من المصالح المهمة؛ كتبليغ معانٍ القرآن؛ وإيصال هدایته إلى الناس أجمعين، من لا يتكلمون العربية، ولا يفهمون لغة العرب، وأيضًا حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشررين، الذين عَمَدُوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوشة عقائد زائفة، وتعاليم فاسدة، ليُظْهِرُوا القرآن ملأ لم يعرف لغته في صورة تُنَفَّرُ منه، وتَصُدُّ عنه.

وقد أجاز العلماء هذه الترجمة، وأكدوا على أهميتها لما يتحقق من خلاها من مصالح عظيمة، وفوائد قيمة. قال الشيخ محمد شاكر: "إن أئمة الإسلام الذين أجمعوا على تحريم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية لم يختلفوا في جواز تفسيره باللغات الأعجمية، كما أجازوا تفسيره باللغة العربية".

وقال السيد محمد رشيد رضا: "وحينئذ لا تكون هذه الترجمة هي للقرآن، وإنما هي فهم رجل للقرآن يخطئ في فهمه ويصيب. فهي لا تخرج من اسمها عن كونها تفسيرًا للقرآن بلغة أخرى غير لغة القرآن الكريم".

فوائد الترجمة التفسيرية:

لترجمة القرآن الكريم ترجمة تفسيرية فوائد كثيرة من ذلك:

1/ تبليغ رسالة القرآن الكريم العالمية للناس جميعًا، خاصة غير العرب؛ لأنَّ القرآن الكريم أنزله الله بلسان عربي مبين للناس جميعًا، ولا سبيل لإيصاله للناس، وتبليغه إليهم إلا من خلال ترجمة معانيه إلى تلك اللغات المتنوعة.

2/ إزالة الأفكار المنحرفة في وسط غير المسلمين التي انتشرت بينهم بسبب بعض الترجمات الخاطئة سواء أكان ذلك في جوانب العقائد، أم العبادات، أم المعاملات، وأعظمها ما وصل إليهم عبر ترجمات قام بها بعض أعداء الإسلام بقصد صد الناس عن الدين، وتضليل المسلمين عن الإسلام الصحيح.

3/ الدفاع عن القرآن الكريم، وحمايته من أيدي العابثين به من خلال تحريف معانيه، وتشويه قيمه.

4/ تحبيب القرآن ولغته العربية إلى غير العرب من خلال تقريب معانيه إليهم مما يسهل عليهم فهم الإسلام بصورة صحيحة، وتصور مقاصده بصورة عميقة، والالتزام به، ونشر فضائله بقوة وعزيمة.

5/ قطع الطريق أمام أعداء الأمة والدين؛ الذين أدخلوا سوهمهم من خلال الترجمات الكثيرة التي قام بها بعض القساوسة والمبشرين والمستشرقين قصدوا من خلالها القدح في الإسلام، وتحريف معانيه، والطعن في رسول الإسلام.

6/ توحيد الأمة المسلمة تحت لسان واحد؛ وذلك من خلال صلاتهم وتلاوتهم للقرآن الكريم وفق اللسان الذي اختاره الله عز وجل لهم، وهو من أعظم عوامل قوتهم ووحدتهم.

7/ تلبية حاجة الثقافة العصرية في العالم، بعد ما نشأ ما يسمى بحوار الحضارات والأديان، وتعايشها، وعدم التصادم بينهما، بحيث يعلو الحوار والمحاجة بينهما.

ضوابط الترجمة التفسيرية:

وضع العلماء ضوابط ينبغي مراعاتها في أثناء القيام بها؛ حتى تكون هذه الترجمة مستوفية للغرض، محققة للمصالح التي قصدت من خلالها، ومنعاً للمفاسد التي يمكن أن تنجم من خلالها؛ ومن أبرز ذلك ما يلي:

1/ الالتزام بترجمة معاني القرآن الكريم، وتجنب الترجمة الحرافية.

2/ أن تترجم المعاني الواضحة المحكمة الموافقة لأصول الشريعة، وقواعد اللغة المستمدّة من القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، واجتهادات علماء الأمة الموفقة، وعدم إخضاع الترجمة والتفسير للأراء المذهبية والاجتهادات الشخصية والأراء الفلسفية، فلابد من التأكد من صحة الكلام المترجم أولاً رواية ودرایة.

3/ أن يكون المترجم عارفاً معرفة تامة بأوضاع اللغتين المترجم منها، والمترجم إليها بأسراهما، وخصائصهما، ودلائلهما، مع التزام الصدق والأمانة في النقل، بعيداً عن الهوى، والأغراض الخاصة.

4/ كتابة النص القرآني كما أنزل باللسان العربي، ثم يكتب التفسير العربي بجواره، ثم ترجمته؛ حتى لا يتوهّم أحد أن هذه الترجمة التفسيرية هي ترجمة حرافية للقرآن، ويفهم الكل على أنها فقط ترجمة لذلك التفسير العربي.

5/ وفاء الترجمة التفسيرية بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن، مع عدم التصرف في مفهوم الآيات القرآنية لدى الترجمة بزيادة أو نقصان.

6/ الإبقاء على المصطلحات الإسلامية التي يتعدّر ترجمتها إلى اللغات الأخرى بلفظها العربي مع شرحها في قائمة تلحق بالترجمة كالصلوة والركع والحج والعمرة.

- 7/ الالتزام باستخدام المصطلحات والتعبيرات الإسلامية عند الترجمة وتجنب الكلمات والمصطلحات الخاصة بالأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية والبوذية وغيرها.
- 8/ اختيار اللغة المعاصرة المفهومة لدى معظم الناطقين باللغة المترجم إليها وتجنب استخدام اللغة القديمة المهجورة.
- 9/ أن تقوم الترجمة على عمل جماعي متكامل من لجان تضم مختصين في علوم القرآن والشريعة واللغة العربية واللغة المترجم إليها وذلك لمعالجة قصور الأعمال الفردية، فالعمل الجماعي أكثر دقة، وانضباطاً، وكمالاً.
- 10/ تسميتها ترجمة تفسيرية للقرآن الكريم، ولا يجوز تسميتها ترجمة القرآن الكريم، ويبين ذلك بصورة واضحة في مقدمة الكتاب.

حكم قراءة الترجمات القرآنية في الصلاة:

يرى جل العلماء عدم جواز الصلاة وقراءة القرآن بالترجمة، إلا ما روي عن الإمام أبي حنيفة. فالشافعية قالوا: (لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها). والحنابلة قالوا: (ولا تجزئ القراءة بغير العربية، ولا إبدال لفظ عربي، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن، ويلزمه التعلم).

وروي مثل ذلك عن المالكية. يقول أبو بكر بن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾ [فصلت: 44]، قال علماؤنا: وهذا يبطل قول أبي حنيفة بأن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيًّا وَعَرَبِيًّا﴾ نفى أن يكون للعجمة إليه طريق - فكيف يصرف إلى ما نفي الله عنه؟ وأما ابن حزم فيحكم بفسق من قرأ غير العربية في الصلاة، فيقول في ملأه: "من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجمًا بغير العربية، أو بألفاظ غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدّم كلمة أو أخرى، عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى قال: ﴿قُرْآنًا﴾"

عَرَبِيًّا﴿ [يوسف:2]، وغير العربي ليس عربيا، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله، وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13].

ويوجه الشيخ محمد أبو زهرة قول الحنفية في مخالفتهم لجمهور الفقهاء بقوله: "إِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ الَّذِي عَاشَ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً فِي الْعَصْرِ الْأَمْوَى، قَدْ أَدْرَكَ الْفَرَسَ وَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَهُمْ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْعَرَبِيَّةِ، لَا يَحْسَنُونَ النَّطْقَ بِهَا، وَلَا تَسْتَطِعُ أَلْسِنَتَهُمْ إِخْرَاجَ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ مُخَارِجِهَا، وَإِنْ عَرَفُوا الْعَرَبِيَّةَ فِي الْجَمْلَةِ، وَاسْتَطَاعُوا التَّفَاهُمَ بِهَا بِوَجْهِهِ عَامٌ، ثُمَّ رَأَهُمْ يَنْطَقُونَ بِآيِّ الْقُرْآنِ نُطْقًا غَيْرَ حَسْنٍ فَرَّحْصٍ فِيهَا وَاعْتَبَرُهَا ذَكْرًا لَا قُرْآنًا. وَيَبْدُوا أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ هَذَا القَوْلِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظْنَنَّ أَنَّ التَّرْجِيمَ قُرْآنًا يَقُومُ مَقَامَ الْأَصْلِ الْعَرَبِيِّ، فَأَجَازُهَا لِلْعَاجِزِ فَقْطًا، وَاعْتَبَرُهَا ذَكْرًا لَا قُرْآنًا كَذَلِكَ. كَمَا اعْتَبَرُهَا صَاحِبَاهُ عَلَى الْوَضْعِ نَفْسَهُ" .

المحاضرة الثامنة: علم إعجاز القرآن

القرآن كتاب الله المعجزُ الذي تحَدَّى الله تعالى به الأوَّلين والآخِرين مِن الإنس والجِنِّ على أنْ يأتوا بمثله، فعجَزُوا عن ذلك عجزاً بيِّنا، وهو مُعجزة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ ثُبِّتَ نبوَّته ورسالته، وقد كان كُلُّنبيٍّ يُرسِّله الله تعالى إلى قومه مُؤْتَدِّا بمعجزة أو أكثر من المعجزات؛ فصالح عليه السلام آتاه الله الناقة آيةً وإعجازاً لقومه عندما طلبُوا منه آية الناقة، وموسى عليه السلام حين أرسله الله تعالى إلى فرعون أعطاه مُعجزة العصا، وعيسى عليه السلام أعطاه الله آياتٍ، منها: إبراء الأَكْمَهُ، وإحياء الموتى بإذنه تعالى.

أمَّا مُعجزة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ فقد كانت هذا القرآن المعجز؛ روى البخاريُّ بسنده عن النبي صَلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: "ما مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أُوْحِيَ إِلَيْهِ، فَأَوْدُّ أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"

فالقرآن الكريم هو إذَا مُعجزة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ، أَعْجَزَ الْحَكْمَ أَنْ يأتوا بمثله، وقد تحَدَّاهم القرآن أنْ يأتوا بمثله فعجَزُوا.

وَبُشِّرَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُشِّرَتْ عَلَى هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، وَهِيَ مُعْجِزَةُ عَامَّةٍ عَمِّتُ الشَّقَّالَيْنِ، وَبِقِيَّتْ بَقَاءَ الْعَصْرِ، وَلَزُومَ الْحَجَّةِ بِهِ بَاقِيَّ مِنْ أَوَّلِ وُرُودِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبه:6]، فلو لا أنَّ سَمَاعَ القرآن يُعدُّ حَجَّةً على سَامِيعِهِ لَمْ يُوقِفْ أَمْرَ المُشْرِكِ عَلَى سَمَاعِهِ، وَلَا يَكُونُ حَجَّةً إِلَّا إِذَا كَانَ مَعْجِزَةً.

وَإِعْجَازُ الْقُرْآنِ بَاقِيٌّ، وَبَقَاءُ الْإِعْجَازِ دَلِيلٌ عَلَى بَقَاءِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَأَنَّهَا رِسَالَةٌ عَامَّةٌ لِلْبَشَرِ كُلِّهِمْ، وَبِبَقَاءِ الرِّسَالَةِ بَقَاءً لِلشَّرِيعَةِ، فَهِيَ إِذَا شَرِيعَةٌ بَاقِيَّةٌ خَالِدَةٌ.

تعريف المعجزة: أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، مَقْرُونٌ بِالْتَّحدِيدِ، سَالِمٌ مِنَ الْمَعَارَضَةِ.

والمقصود من المعجزة ليس هو إعجاز الناس لذات الإعجاز أي مجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة، بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو الله تعالى. كانت معجزات كلنبي ورسول نابعة من بيته، ومتناسبة مع قومه، فتأتيهم على وفق ما يرعنوا فيه حتى يكون ذلك أدعى لإيمانهم، ولإقامة الحجة لأن المعجزة لا تتحقق الغاية منها إلا إذا حصل التحدي بها ولا يتحقق التحدي لأمة من الأمم لا تعرف شيئاً عن المتحدى به.

فقد بعث الله تعالى محمداً صلی الله عليه وسلم في قوم كان الكلام بضائعهم، فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، الشعر والخطب البليغة زادهم وشرابهم، قصيدة تجذبهم فتكون وكأنها معبد لهم، فتعلق في الكعبة أعز مكان وتكون من المعلقات، كانت أسواقهم تبادلاً وتدالاً، يتداولون بضائعهم ويتداولون أشعارهم. فجاءتهم معجزة من جنس ما عرفوا وألفوا، فتحداهم بالمعروف عندهم والمأثور لديهم.

التحدي:

تحدى القرآن البشرية جماء - بل الإنس والجن معاً - على أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظماً وبياناً، وجاء ذلك في عدة آيات، منها:

1_ التحدي بالإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُواٰ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

2_ التحدي بالإتيان بعشر سور ولو كانت هذه السور مفتريات حسب زعمهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

3_ التحدي بالإتيان بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أوجه الإعجاز القرآني:

لا يحيط بوجوه الإعجاز إلا مُنزل القرآن سبحانه وتعالى؛ ومن أبرزها ما يلي:

- الإعجاز اللغوي.
- الإعجاز الغيبي (الإخبار بالمعنيّات).
- الإعجاز العلمي.
- الإعجاز التشريعي.

١_ الإعجاز اللغوي:

هو أحدُ وجوه الإعجاز الذي هو إعجاز شاملٌ لكلٍّ ما في الكلمة "إعجاز" مِن معنى؛ فهو مُعجز في ألفاظه وأسلوبه، وهو مُعجز في بيانه ونظمِه، يجد القارئ فيه صورةً حيَّةً للكون والحياة والإنسان، وحيثما قلبَ الإنسان نظرَه في القرآن وجد أسراراً مِن الإعجاز اللغوي:

أولاً: في نظامِه الصوتي التدَبُّر بجُرس حروفه حين يسمع حركاتها وسكناتها، ومدّها وعُنْتها، وفواصلها ومقاطعها.

ثانياً: في ألفاظه التي تَفَقِّي بحقِّ كلٍّ معنى في موضعه، لا يَنْبُو فيه لفظٌ فِيقال: إنه زائد، ولا موضع يُقال: إنه يحتاج إلى لفظٍ ناقص.

ثالثاً: في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم بما تُطْلِيقه عقولهم، فيراها كُلُّ واحدٍ مقدرة على قدر عقله، ووفق حاجته.

رابعاً: في إقناع العقل وإقناع العاطفة بما يَفْيِي بحاجات النفس البشرية؛ تفكيراً وُوجداً، في تكافؤٍ واتزان، فلا تطغى قوَّة التفكير على قوَّة الوجود، ولا قوَّة الوجود على قوَّة التفكير.

وإن دقة استعمال القرآن الكريم للألفاظ والتراكيب وتناسق تلك الكلمات وترتيبها شيء معجز حقاً، ومن بين الأمثلة على ذلك:

— قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ ۖ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: 23]، وقد ورد ذكر "السمع والأبصار والأفءدة" في هذه الآية وفي عدة آيات من القرآن الكريم في

سورة المؤمنون والنحل، وهذه الحواس ورد ذكرها في سياق النعم الإلهية التي ينعم بها كل إنسان، والآية الواردة فيها هذه الكلمات تبقى أوسع مجالاً للجمل البياني من حيث اللغة والعلوم، فالله ذكر السمع في كل هذه الآيات في أواها، علماً بأن حاسة السمع هي التي تعمل أولاً في الطفل الجنين، ولا يعمل العقل والتفكير إلا بعد فترة من ميلاده، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن الجنين يستطيع أن يحس الأصوات الخارجية، كما أنها وردت مفردة، وفي ذلك أيضاً سر من أسرار الخلق الإلهي، إذ إن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أكثر من صوت واحد في الوقت الواحد، بينما يستطيع أن يرى أشياء كثيرة بلمح البصر، والرؤى هو الآخر يحتوي على مختلف العواطف والمشاعر.

وكذلك دقة استعمال الألفاظ وإحكام المعاني كالتعبير بزوج بدل امرأة والعكس، فلفظة "زوج" يستعملها حين يكون التوافق بين الزوجين قائماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدُم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ...﴾ [البقرة: 35]. وأما لفظ "امرأة" فيستعملها حين يصبح التوافق ناقصاً أو يشوبه خلل، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: 10]. فتغير اللفظ يعكس طبيعة العلاقة. وصدق سبحانه: ﴿الَّهُ نَرَأَ أَخْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَاهِدًا مَّثَانِي تَقْشِعُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

وعدد آيات القرآن نحو ستة آلاف ومائتي آية (6200)، تناولت موضوعاتٍ شَتَّى؛ في الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق، والقصص، وغيرها، وكلُّها جاءَتْ في غاية الدقة والإحكام، مع روعة البلاغة والبيان. وليس في القرآن معنى يعارض معنى، أو حكم ينافي حكمًا، أو مبدأ يهدِّم مبدأً، أو غرض لا يتنقق مع آخر، وصدق الحق جلَّ وعلا إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].³⁷

³⁷ ومن الأوجه الفاسدة والأقوال الباطلة في إعجاز القرآن القول بالصرف: وهو قول منسوب إلى أبي إسحاق النظام من المعتزلة والإمام المرتضى من الشيعة ثم إلى أبي إسحاق الإسفرايني من أهل السنة.

2 _ الإعجاز الغيبي (الإخبار بالمخفيات):

من وجوه إعجاز القرآن إعجازه في الإخبار بالمخفيات، هذه المخفيات قد تتعلق بالماضي الصحيح المؤغل في القديم مما لم يشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي خاطبه ربه سبحانه فقال: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيْمَنٌ يَكْفُلُ مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ﴾ [آل عمران:44]؛ وذلك تعقيباً على قصة امرأة عمران، وتهييداً للحديث عن مريم عليها السلام.

ومنها ما يتعلق بالحاضر الواقع في زمن نزول القرآن عن أمور متعلقة بغيوب لمن هم في عصر الرسالة. ومنها ما يتعلق بغيوب مستقبلية لم تكن وقعت في عهده صلى الله عليه وسلم، وما يُكون في يوم القيمة.

أ- من الغيوب التي وقعت في الماضي:

♦ في سورة البقرة أخبر الحق جل وعلا عن مغيبات وقعت لبني إسرائيل، وما حديث موسى عليه السلام معهم؛ مثل قصة البقرة، وقصة اتخاذهم العجل، وكذلك قصة بناء الكعبة على يد إبراهيم وإسماعيل.

♦ وفي سورة البقرة كذلك قصة طالوت وجالوت، وانتصار بني إسرائيل على أعدائهم وقيام مملكة داود عليه السلام.

وخلصة هذا القول أن وجه الإعجاز في القرآن هو الصرف أي: أن الله صرف قلوب العرب عن معارضته القرآن فزهدتهم في معارضته فلم تتعقب إرادتهم ولم تنبئ إليها عزائمهم، فكسروا وقعدوا رغم توافر البواعت والدعوي، بل زعموا أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية.

والآمة بفرقها ومذاهبها مجتمعة على خلاف هذا، فالمعتزلة وعلى رأسهم الزمخشري قد أبطل مثل هذا القول، والطبرسي الشيعي قد فنده، وأهل السنة كذلك، فهو مذهب باطل.

والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان بهاته، ثم قال السيوطي: "لو كانت المعارضه ممكنه، وإنما منع منها الصرف لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه".

♦ وفي سورة آل عمران قصة امرأة عمران، وقصة مريم وولدها عيسى ابن مريم عليهما السلام ونبوته رسالته.

♦ وفي سورة الأعراف: قصة عاد، وثود، وقصة خلق آدم عليه السلام، وقصة ما وقع لآدم من إبليس لعنة الله، وإخراج آدم من الجنة بوسوسته، وقصة تمكين الله تعالى لموسى عليه السلام وبني إسرائيل.

♦ وفي سورة يوسف قصة يوسف عليه السلام كاملة في موطن واحد.

♦ وفي سورة القصص قصة موسى من لحظة ميلاده حتى خروجه من مصر وعودته إليها، والصراع الذي دار بين موسى ودعوته، وفرعون الذي رفض دعوة الإسلام التي جاء بها موسى عليه السلام.

♦ وكذلك قصة قارون وكيف أهلكه الله تعالى بطغيانه وجبروته.

♦ وفي سورٍ كثيرةٍ من القرآن ألوانٌ مُتَّنِوعَةٌ من القصص، الذي يُخْبِرُ عن غيَّباتٍ من الماضي ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَعْلَمَها إِلَّا مِنْ خَلَالِ الْوَحْيِ، وفي التعقيب على قصة موسى في سورة القصص يقول الحق جل وعلا: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَنْتُلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَنَّا هُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: 44-46].

من كلي هذا يتضح أن أكبر دليل على أن القرآن من عند الله تعالى هذا القصص، الذي يعرض لواقع تفصيلية في تاريخ غابر ما شهدَه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه عِلمُ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ب- من الغيبات التي وقعت في الحاضر المعاصر لنزول القرآن:

من إعجاز القرآن الإخبار بالمعيّبات التي كانت معاصرة لزمن النبي صلى الله عليه وسلم فضح مكايده المนาفقين ومؤامراهم؛ كما حدث في مسجد ضرار؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اخْدُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

وَتَغْرِيَقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَيَخْلُفُنَّ إِنْ أَرْدَنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقْمِ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْعِدُ أَسِسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارِ فَاهْتَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَرَأُلُ بُنْيَاهُمُ الدِّي بَنَوْا رِيَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبه: 107-110﴾.

وكان نَفَرٌ من المنافقين بنَوْا هذا المسجد للكيد للنبي صَلَّى الله عليه وسلم وأصحابِه، وجاؤوا لرسول الله صَلَّى الله عليه وسلم ليُصَلِّي فيه فـيَتَّخِذُوه مسجداً وقالوا: يا رسول الله، قد بَنَيْنَا مسجداً لـذِي العِلَّةِ والـحاجةِ والليلة المطيرة، ونحن نـحب أن تأتينا وتصلـى فيه، فقال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم: "إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَشَعْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ". ثُمَّ نـزل القرآن فأرسل رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم في قـولـه مـنْ تـبـوكـ مـنْ يـهـدمـهـ، فـهـدـمـ وـأـحـرـقـ.

♦ وكذلك ما أَخْبَرَ به القرآن مـنْ شـأنـ المـنـافـقـينـ: موقفُ عبدِ الله بن أَبِيِّ بن سَلْوَلِ الذي قال عنه القرآن:

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَهُ حَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجُنَّ الْأَعْزَمِنَهَا الْأَذَلَّ وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 7-8].

وكان عبدُ الله بن أَبِيِّ قال تلك الكلمة في حقِّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، فـأَخْبَرَ زـيدـ بـنـ أـرـقـمـ رسولـ اللهـ صـلـّـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ، فـلـمـاـ سـئـلـ عـبدـ اللهـ بـنـ أـبـيـ عنـ قولـ تلكـ الكلـمةـ أـنـكـرـ أـنـهـ قـالـهاـ، فـأـنـزلـ اللهـ تـعـالـىـ فيـ القرـآنـ تـصـدـيقـ زـيدـ بـنـ أـرـقـمـ، وـغـيرـ ذـلـكـ فيـ القرـآنـ كـثـيرـ.

جـ- من الغـيـوبـ المستـقـبـلـيةـ الـتـيـ أـخـبـرـ بـهـ القرـآنـ:

وهي كثـيرـةـ؛ فـمـنـ ذـلـكـ: إـخـبـارـ القرـآنـ عـنـ الرـوـمـ أـنـهـ سـيـتـصـرـونـ عـلـىـ الـفـرـسـ فيـ بـضـعـ سـنـينـ حـيـثـ نـزـلـ قولـ اللهـ تعـالـىـ: ﴿غـلـبـتـ الرـوـمـ * فـيـ أـذـنـ الـأـرـضـ وـهـمـ مـنـ بـعـدـ غـلـبـهـمـ سـيـغـلـبـهـونـ * فـيـ بـضـعـ سـنـينـ لـلـهـ الـأـمـرـ﴾

مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بَصَرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ * وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الروم: 2-6﴾

وانقضَ هرقل عظيم الروم بعد هزيمة الروم ببعض سنين على معايير الفرس، فلاذ الفرس بالفرار، وهزموا هزيمة فادحة، ثم عاد هرقل إلى القسطنطينية عاصمة الروم، وتم له ذلك في بعض السنوات التي أخبر القرآن بها. ومن ذلك ما أخبر به القرآن من انتصار الدعوة الإسلامية، وانتشار دين الإسلام، والآيات في ذلك متکاثرة، وقد حدث ما أخبر به القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُونَ أَنْ يُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحُقْقِ لِيُظَهِّرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبه: 32-33].

3_ الإعجاز العلمي:

قد تقدّمت العلوم في هذا العصر تقدّماً كبيراً، وكثُرت مسائلها، ولم يتعارض شيء ثابت منها مع آية من آيات القرآن، وهذا يعده من الإعجاز.

وإنَّ إعجاز القرآن العلميَّ بابٌ واسع، ولا نقصد التفسير العلمي القائم على بعض النظريات والفرضيات التي لا تزال قيد البحث والنظر، ولكن نقصد تلك الحقائق العلمية الراسخة التي أثبتتها العلم حيلاً بعد جيل، فنجد في القرآن العظيم إشاراتٍ إلى جملٍ منها؛ ذلك أنَ القرآن كتابٌ هداية وإرشاد، وهو حين يُشير إلى حقيقةٍ علميةٍ، يُشير إليها إشارةً موجزةً مجملةً يعرفها العلماء بعد طول البحث والدرس، ومن هذه الإشارات الإعجازية البالغة ما يلي:

1 - التلقيح في النبات ذاتيٌّ وخلطيٌّ، والذاتي هو ما اشتغلت زهرته على عضو التذكير والتأنيث، والخلطي هو ما كان عضو التذكير فيه مُنْعَصِلاً عن عضو التأنيث كالنَّحْيَل فيكون بالنَّقل، ومن وسائل ذلك الريح، وهذا هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: 22].

2 - الأوكسجين هو غاز ضروري للتنفس، ويُقلّ في طبقات الجوّ العليا، فكلّما ارتفع الإنسان في أجواء السماء أحسَّ بضيق الصدر، وصعوبة التنفس، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرُحْ صَدْرَهُ لِإِلْسَامٍ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضْلِلُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَمَا يَصَدَّعُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125].

3 - وفي مجال علم الأحياء يقول الله تعالى: ﴿فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالثَّرَائِبِ﴾ [الطارق: 5-7]. وقد أثبتَ العلماء هذه الحقيقة العلمية؛ إذ إنَّ التكوينات الأولى للبُويضة والحيوان المنوي تبدأ من بين الصُّلب والتَّرَائب، وهي عظام الصدر.

4 - ما أَرْشَدَ إِلَيْهِ القرآنُ مِنْ اختِلاف بصمات الأصابع في الإنسان في قوله تعالى: ﴿أَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنَّ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَائَهُ﴾ [القيامة: 3-4]، فهذه الآية تلفتُ النظر إلى قُدرة الله تعالى، وحُكْمِته في خلقِ البناء بصورة مختلفة مِنْ إنسانٍ إلى آخر؛ مما يتَّبعُ عليه اختلاف بصمات الأصابع.

وإذا ذَهَبْنا نُعَدِّ أمثلةً للإعجاز العلمي في القرآن نجدُها كثيرةً، والقرآن حين يعرض هذه الآيات الكونية كدلائل للإعجاز، يعرضها في معرض الهدایة بالقرآن الذي هو كلام العليم الخبير بأسرار السماوات والأرض، ويهدف منها إلى لفتِ الأنظار إلى بديع قُدرة الله تعالى كدليل على وحدانيته وألوهيته.

4 - الإعجاز التشريعي:

عرَفت البشرية في عصور التاريخ المختلفة ألواناً مختلفةً مِن المذاهب والنظريات، والنظم والتشريعات التي تَسْتَهْدِف سعادةَ الفرد والجماعة، ولكن واحداً منها لم يبلغ مِن الروعة والإتقان والإجلال مَبلغ القرآن في تشريعاته ونُظُمه، بل ولا داناه، ولا قارئه.

لقد جاء القرآن ليُبَيِّنَ عقيدةً في القلوب تؤثِّر على سلوك الإنسان ووجوده ومشاعره، وترسم في حنايَا نفسه مسارب للتربية الإيمانية العميقَة التي تُفْوِتُ عقيدة التوحيد.

فأساس التشريع الإسلامي هو في تلك العقيدة، التي يُرجيّ عليها القرآن أبناء الإسلام فتترجم إلى سلوك عملي، عقيدة تقوم على أن الله تعالى خالق الكون ومن شئه، والمهيمن على كلّ كبير وصغير فيه. والعالم الذي يحيى فيه الفرد المسلم هو جزءٌ من هذا الكون الكبير، يجب أن يسير على وفق المنهج الذي ارتكاه له خالقه، ومن أُسس عقيدة التوحيد ما جاء في القرآن مثل:

♦ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾

[الإخلاص: 1-4].

♦ قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

♦ قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: 3].

♦ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشوري: 11].

♦ قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103].

♦ قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

هذه الحقائق عندما نعيش في وجدان المسلم، ويتربي عليها، يُكون انقياده لشريعة الله المنزلة في كتاب الله انقياداً تاماً مُسْتَوِياً على كلّ شخصيته، ويعُد نفسه متبعاً إلى الله تعالى خالقه بكلّ تكليف، وكلّ أمر، وكلّ نهي يرد في القرآن أو في سنة النبي صَلَّى الله عليه وسلم؛ يقف منه الموقف المذعن للأمر بالاعتمار، وللنهي بالانتهاء.

وهكذا إذا صحت العقيدة كان الأخذ بالتشريع القرآني على مستوى صحة العقيدة، فتصبح كلّ عبادة مفروضة من صلاة وصوم وحج وزكاة وغيرها من ضروب العبادة مظهراً من مظاهر الصلاح، الذي يعكس أثره على المجتمع في مجتمعه، والدولة في نظامها.

فالصلاحة تربية روحية يتَّعلم الفرد من خلالها نظام الجماعة؛ فهو يؤدّيها في جماعة خمس مرات في اليوم والليلة، فيتعلم الإيجابية، فالصلاحة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهو في إتجاهه إلى قبلة واحدة

يتفكر في تلك القبلة التي يُصلّى إليها المسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها؛ فيشعر بالوحدة الإسلامية، والآصرة الإيمانية، تماً لأرجاء نفسه، ويسطير على كيانه ومشاعره.

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشر، وعبادة المال، والحرص على الدنيا، وهي في صالح الجماعة؛ فهي تُقيم دعائم التعاون بين أفراد المجتمع، وتشعر النفس بتكاملها مع الآخرين.

والصوم ضبط للنفس، وشحذ لعائمه، وحبس للشهوة، وقوية للإرادة، وهو ظهر اجتماعي يجمع المسلمين شهراً كاملاً على نظام واحد في الطعام والشراب، فقوى الأوصاف، وتتوحد الهمم والمشاعر.

والحج سياحة روحية، وتجوال في أماكن مهبط الوحي الأولى، وبها ينخلع المسلم من أهله ووطنه وجوازب الأرض والطين؛ لينضم إلى قافلة المقيمين على الله.

ومن تربية القرآن للفرد يتقل إلى بناء الأسرة على دعائم صالحة من الود والرحمة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَرْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

وتقوم العاشرة داخل الأسرة المسلمة على المعروف، وللرجل القوامة التي تعني: القيام بالرعاية، واستشعار المسؤولية.

ثم يأتي نظام الحكم الذي يُقام في المجتمع المسلم، فهو كما أراده الله تعالى، وبينه في القرآن نظام يُقام على الشورى الملزمة، فلا استبداد برأي، ولا تعطيل لقوى المجتمع الحية في تنمية المجتمع وترقيته؛ قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38].

هي إداً حكومة الشورى والمساواة، والعدل والحرية، وتحكيم الشريعة في الصغير والكبير من أمور الدولة؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبَيْنِ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَبَعُوا الْهُوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعُدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمًا يَعِظُّكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

والتشريع الإسلامي جاء تشريعاً قائماً على أصول صالحة عامّة؛ فهو تشريع مرن يصلاح حاجة الجماعة البشرية في كل عصر، وهو تشريع متوازن متكامل؛ يجمع بين حاجات الروح ومطالب البدن.

ولقد جاء القرآن بأصول التشريعات المختلفة؛ من تشريعات اجتماعية واقتصادية، وسياسية ودستورية، دولية وجنائية، في أسلوب سهل بديع يهمني الملكة العلمية للاجتهاد والتطوير المنضبط بالثوابت والقطعيات، وبما يتلاءم مع ظروف العصر وحالات كل جماعة من الجماعات البشرية.